بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾

(الأنفال ٦٠)

الباب الثامن

مصر تغني

رمضان ربيع عمري

الفصل الأول

١٩٧٣
عام فيه يكرم المرء أو يهان

بدأ عام ١٩٧٣ بمشاكل طارئة نتيجة العدوان الإسرائيلي على سوريا ، ووقوع معركة جوية أحدثت خسائر كبيرة في القوة الجوية السورية ، وضرب العدو اللاذقية مركزًا على مدرسة المدفعية المضادة للطائرات بها ، ومركز للتدريب ومركز تجميع الطائرات ، وضرب أيضًا طرطوس ، وتمكن العدو من تدمير ٥ محطات رادار سوري من ١٢ محطة رادار وفقدت سوريا ٨٨ شهيدًا وأربعة طيارين و٢٤٨ جريحًا منهم ١٠ ضباط . وكان إجمالي خسائرها في الطائرات في شهر واحد حوالي ١٨ طائرة وكان غرض العدو الإسرائيلي فرض حالة من اليأس والقنوط ، واستنزاف قوتنا وإرهاب سوريا مع التخلص من الفدائيين .

وكان رأي القيادة المصرية عدم التورط أو تصعيد القتال ، وأن سوريا قادرة على تحمل هذه الضربات حاليًا ، ولكن يجب أن تكون القوات جاهزة لاحتمال قيام العدو الإسرائيلي بعمليات ضد مصر في أي وقت ، وأن تكون درجة الاستعداد للقوات جاهزة لتلقي ضربات العدو الجوية في أي مكان ، مع تجهيز خطط الردع السريع لتنفيذها إذا اضطرتنا الظروف إلى ذلك مع الحذر التام .

وقد قررت **القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية** أن نبدأ معركتنا بإمكانياتنا وحسب تخطيطنا ، وفي التوقيت المناسب لنا لضمان النجاح وقد استمر التدريب القتالي والإعداد للقوى بجدية وبدأ كل فرد يتفهم مهمته ويتقن التدريب عليها .

الموقف حتى سبتمبر ١٩٧٣ :

أصدر وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة قرارًا بتعيين لجنة لمراجعة درجات استعداد الجيوش الميدانية ، وقياس أعمدة إعداد القوى السبعة ، وتقديم تقرير عن أعمال

اللجنة واختار لرئاسة هذه اللجنة قائد المنطقة العسكرية المركزية الذي كان قبل عام ونصف تقريبًا قائدًا للجيش الثاني الميداني ، وضمت اللجنة عددًا من الضباط من مختلف التخصصات ، وقضت اللجنة حوالي ٧٢ ساعة بين تشكيلات ووحدات الجيش الثالث ، وحوالي ٩٦ ساعة في الجيش الثاني الميداني ، وأتمت مراجعة موقف القادة والقيادات ، واختبار درجات تفهم الموقف والمهمة وأسئلة عن مدى معرفة العدد بصفة عامة والعدو الموجود أمامهم أو المنتظر مقابلته عند العبور ، مع قياس درجات الشجاعة والإقدام والعلم والمعرفة وإجادة عمل الفرد في الرماية والسباحة واستخدام الأرض والساتر وحماية نفسه . كما حدثت اختبارات ثقة في أسلوب تدمير مدرعات العدو بواسطة الفرد ، وهو أسلوب تخصصت فيه معظم وحدات المشاة في الجيشين ، وهذا يتطلب شجاعة وثقة وتضحية وحسن تصرف .

وكان حساب درجات المعنويات مبنيًا أساسًا على الشعور بالعدل وحل المشاكل بين الأفراد ونظرات الاطمئنان والرضا في عيون الرجال وتصرفاتهم .

وكان اختبار الوحدات الفنية خاصة المهندسين منصبًا على معدات العبور وسرعة إقامتها واستخدامها بكفاءة ، وكذا تجارب فتح الثغرات بقوة اندفاع المياه في السواتر الترابية .

وأمكن في قطاع البلاح بالجيش الثاني اختبار اللواء ١٥ مدرع في عمليات عبور قناة السويس بالتوباز ، كاختبار ثقة وقد تم بنجاح .

ولما انتهت اللجنة من اختباراتها ومراجعة درجة الكفاءة القتالية والاستعداد ، عادت إلى القاهرة وقدمت تقريرها إلى القائد العام للقوات المسلحة الذي عكف على دراسته بعناية ، حتى يمكن معرفة نقاط الضعف الممكن تفاديها أو إصلاحها .

عودة إلى نتائج الجولات العربية الإسرائيلية الثلاث السابقة . . نجد أن القوات المسلحة العربية عقدت دراسة في أعقاب هزيمة ١٩٥٦ العسكرية ، إلا أنها لم تستفد من دروسها في مجال التطبيق العملي ، حيث كان ينبغي تغيير الوجوه الممسكة بزمام السلطة العسكرية كما فعلت إسرائيل المنتصرة التي غيرت قادتها وصانعي نصرها عام ١٩٥٦ بقادة جدد ، ولكننا في مصر تولى الأمور أهل الثقة بدلاً من أهل الكفاءة ، وكانت النتيجة الطبيعية أن تتكرر في عام ١٩٦٧ نفس الأخطاء العسكرية التي حدثت في عام ١٩٥٦ ، ولكننا في عام ١٩٧٣ حرصت القوات المسلحة المصرية على الدراسة والاستفادة من دروس الحروب السابقة ، والخروج بخبرات مستفادة مع ملاحظة التطور العسكري ، والإلمام بكل ما يملكه الخصم

ومعرفة استراتيجيته وتكتيكاته المزمع استخدامها وردود أفعاله المحتملة . وقد أفادتنا حرب الاستنزاف طيلة سنوات ثلاث فى الحصول على معلومات عن العدو الإسرائيلي والقائد والجندي الذي سنحاربه ، وأسلوب حياته وتصرفاته وانضباطه وتدريبه وعقيدته ، وبالطبع أسلحته ومعداته وقدراتها . وحدث قتال متلاحم فعلي بين الجندي المصري والجندي الإسرائيلي وانهدم جدار الخوف القديم ونقلناه إلى الشرق ، حيث يتقوقع الجندى الإسرائيلي خلف الجدر والحصون وتحت الأرض . واتجهت القوات المسلحة المصرية أيضًا إلى وضع العنصر البشري على قمة أولويات اهتمامها لأهميته . ويعد ارتباط العنصر البشري بالعقيدة الإيمانية الصادقة مفتاح النصر في المعارك . وبالطبع يجب الاهتمام بموقف الضباط الأصاغر فهم جوهر الجيش ويجب توجيههم ومعرفة مشاكلهم وحلها وكذا أهمية اختيار ضباط صف متطوعين أكفاء ، ويمكن ترقيتهم إلى رتبة الضابط (كما يحدث في معظم جيوش العالم) وكانت هذه الأفكار تحت البحث لدعم العنصر البشري في القوات المسلحة المصرية .

وللحقيقة والتاريخ كانت أمام القيادة المصرية بعض عقبات مهمة ، تطلبت تفكيرًا علميًا متجردًا للتغلب عليها وأولى هذه العقبات أنه لابد من عبور المدرعات المصرية شرقًا بأسرع ما يمكن لتدعيم المشاة التي ستعبر القناة في الموجات الأولى ، ويتوقف هذا على سرعة تجريف الأرض بقوة المياه لتشق التراب وتفتح الثغرات في الجدر العالية التي أقامها الجيش الإسرائيلي لعرقلة عبور المدرعات . وأذكر أن المستشار السوفيتي لوزير الحربية ومعه المارشال جريتشكو اقترحا علينا استخدام قنبلة ذرية أو استخدام عدد كبير من الحوامات للعبور شرقًا !! ولكن القوات المسلحة صممت على استخدام قوة المياه في تحطيم هذه الجدر عملاً بقوله تعالى : ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فصلت ٣٩ ، وعقبة أخرى وهي الأجهزة الإلكترونية والفنية التي ابتكرها المهندسون الإسرائيليون لغمر سطح القناة بالنيران عندما تبدأ المشاة في العبور ، وقد درست دراسة وافية وتم تحديدها ووضع الخطط الكفيلة بتدميرها قبل اشتعالها . . عملاً بقوله تعالى : ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ المائدة ٦٤

وكان لابد من الحصول على المفاجأة التامة للعدو وقد سار التخطيط لها بدقة وعناية وحذر وسرية تامة وخداع بحيث نأتي إليهم من حيث لم يحتسبوا حتى ينتشر الذعر والرعب في قلوبهم عملاً بقوله تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ القصص ٦٦

وأثناء الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ . . تركز الاهتمام على تدريب الفرد على القيام بالواجبات التي يكلف بها في القتال ، فالفرد إذا قام بواجبه فإنه يساعد المجموعة على النصر . وخلف كل جندي مقاتل في الميدان وكل سلاح ومعده ومركبة أيًا كان نوعها في البر أو البحر أو الجو عشرات الجنود الآخرين يؤدون واجباتهم كل في تخصصه وبفنه وخبرته ؛ حتى يحافظوا على بقاء الجنود أحياء والسلاح والمعدة صالحة للعمل ، وهؤلاء كانوا موضع اهتمام القيادة العامة للقوات المسلحة في إعدادهم للقيام بعملهم بكفاءة ودقة وأمانة ومنهم الإداريون والفنيون وجند القلوب والعقول والقلم والفكر والأطباء في جميع التخصصات ، وبالطبع إعداد رجال الدين للدعوة إلى الحق والنور .

وحسب المثل القائل الجيوش تمشي على بطونها ، وبناء على تحليل إسرائيل لموضوع المسافة بين الضابط المصري والجندي فكان لابد من العمل على تقليل هذه المسافة بتحسين طعام الجنود والاهتمام به وقد تم هذا قبل معركة أكتوبر .

- وفي أول أكتوبر ١٩٧٣ تم تنسيق الخطة وتنظيم التعاون وأذن المؤذن بفجر جديد :

الله أكبر . . . . . الله أكبر . . . . . ، وغنت مصر . . . . . رمضان ربيع عمري .

الفصل الثانى

١٢٠ ساعة قبل المعركة

كوبري القبة في :

يوم اول اكتوبر ١٩٧٣ الموافق ٥ رمضان ١٣٩٣

الحضور

- الرئيس محمد أنور السادات	- القائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس جمهورية مصر العربية
- فريق أول أحمد إسماعيل علي	- وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة
- فريق سعد الحسينى الشاذلي	- رئيس أركان حرب القوات المسلحة
- فريق محمد علي فهمي	- قائد قوات الدفاع الجوي
- فريق طيار محمد حسني مبارك	- قائد القوات الجوية
- فريق فؤاد ذكري	- قائد القوات البحرية
- لواء أ ح عبد المنعم محمد خليل	- قائد المنطقة المركزية العسكرية
- لواء أ ح مصطفى الجمل	- رئيس هيئة البحوث العسكرية
- لواء أ ح محمد عبد الغني الجمسي	- رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة
- لواء أ ح أحمد منير عبد الرحيم	- مدير إدارة شئون ضباط القوات المسلحة
- لواء أ ح محمد فائق البوريني	- رئيس هيئة تدريب القوات المسلحة
- لواء أ ح سعد الدين مأمون	- قائد الجيش الثاني الميداني
- لواء أ ح عبد المنعم واصل	- قائد الجيش الثالث الميداني
- لواء أ ح محمد نوال سعيد	- رئيس هيئة إمدادات وتموين القوات المسلحة
- لواء أ ح إسماعيل عبد العظيم	- مساعد وزير الحربية
- لواء أ ح عمر جوهر	- رئيس هيئة التنظيم والإدارة

- لواء أ ح كمال حسن علي	- مدير المدرعات
- لواء أ ح محمد فؤاد نصار	- مدير إدارة المخابرات الحربية
- لواء أ ح حسن الجريدلي	- أمين عام وزارة الحربية
- لواء أ ح محمد سعيد الماحي	- مدير المدفعية
- لواء أ ح م جمال الدين محمد علي	- مدير المهندسين
- لواء أ ح إبراهيم كامل	- قائد منطقة البحر الأحمر
- عميد أ ح نبيل شكري مصطفى شكري	- قائد قوات الصاعقة
- عميد أ ح محمود عبد الله	- قائد وحدات المظلات

الموضوع :

تقارير القادة والرؤساء بشكل عام ومدى استعداد القوات المسلحة لتنفيذ المهمة وأي صعوبات .

بدأ اللقاء الأخير قبل المعركة بحوالي ١٢٠ ساعة في قاعة الاجتماعات بالقيادة العامة للقوات المسلحة في كوبري القبة ، في ليلة من ليالي رمضان شهر القرآن والحب والحرب . . واستأذن الفريق أول أحمد إسماعيل من الرئيس السادات للحديث الأول ، وقال :

« الخطة حسب ما لدينا من إمكانيات والسيد الرئيس معنا في كل خطوة ، فالمعركة معركة مصر . . معركتنا جميعًا وسنعمل جميعًا ونبذل أقصى جهد لنا وشعارنا النصر أو الشهادة . . » ثم قال : « اقترح تنظيم الجلسة بتقارير القادة والرؤساء بشكل عام ، ومدى استعداد القوات لتنفيذ المهمة وأي صعوبات تذكر بصراحة مع أنفسنا مع بلدنا مع وطنا . »

وبدأت التقارير **بتقرير مدير المخابرات الحربية والاستطلاع** ، لواء فؤاد نصار :

« لقد نجحنا في الحشد حتى ٢٦ / ٩ ولكن ديان أعلن أن مصر وسوريا حشدت قواتها . . وقد تعين قائد جديد للقوات المدرعة في سيناء وعبأ العدو ١٠ لواءات في الشمال ، وأعلن الطوارئ في المنطقة الشمالية في الإذاعة ، وأخلى بعض مناطق في شمال إسرائيل . وقد انخفضت طلعات العدو الجوية لفترة للاستعداد . ولم يحرك إلى اليوم قوات برية أمام قواتنا ، أما سوريا فقد عزز في مواجهتها بلواء واحد .

ويصعب على العدو القيام بعملية إحباط برية حاليًا ، ولكنه سيقوم بعملية إحباط جوي وبمدفعيته بعيدة المدى خاصة في مرحلة العبور ، دون إدخال قوات رئيسية في مدى مدفعيتنا . . والمعركة الرئيسية ستكون شرق المضايق . . وسيحاول العدو تدمير قواتنا الجوية في الجو ، أو السيطرة على المطارات بعد الإقلاع أو يملأ الممرات بقنابل زمنية تمنع القوات الجوية من المعاونة صباحًا . .

لم يحرك حتى اليوم أي قوات غرب المضايق ، وقد أوقف العدو أعماله الهندسية على الجبهة بعد ٢٦ / ٩ / ١٩٧٣ ، وليس له نشاط كبير في جنوب سيناء .

تقرير رئيس هيئة العمليات :

- لا تغيير في خطة العمليات . تمت مرحلتا إعادة التجميع ، والثالثة ستتم على مراحل عدا لونا والتين والزيتون ستتحرك في أخر لحظة (أسماء رمزية لأسلحة مراقبة) .
- رفعت درجة استعداد القوات المسلحة على خطوات .
- تسير خطة الخداع الاستراتيجي والتعبوي بالتنسيق مع الخارجية والإعلام .
- تمت خطة الخداع العسكري بنجاح وجاري حاليًا مشروع تعبوي استراتيجي لاستدعاء الاحتياط وإلغاء الفرق التعليمية .
- لم نجر اتصالات مدنية حتى الآن .
- ستنزل الخطط تدريجيًا إلى الأفراد .
- لم يعلن توقيت الهجوم للآن .

تقرير قائد القوات الجوية :

- لا تعديل في الخطة .
- نسقت الضربة المركزة مع سوريا والضربة الثانية بعد ساعتين .

هنا أشار الرئيس السادات بالآتي :

« يجب استخدام الطيران مركزًا ، أما الجيوش فيجب أن تستخدم عناصر الدفاع الجوي وسيصل الكروتال الفرنسي قريبًا » .

تقرير قائد قوات الدفاع الجوي :

- جارى عمل الانتقالات لتوفير حماية تجميع القوات البرية في العملية الهجومية .

تقرير قائد القوات البحرية :

- لا تغيير عن الخطة .
- أخذت القوات موّاقعها وبدأت الغواصات فعلاً في التحرك لتنفيذ مهمتها .

تقرير مدير المدفعية :

- المدفعية جاهزة لتنفيذ المخطط : ٤٠١٧ قطعة مدفعية

الجيش الثاني ١٥٤٠ الجيش الثالث ٦١١ قطعة

- تمهيد النيران ٤ قصفات منها واحدة كاذبة
- كثافة قطاعات الاختراق حتى ٧٧

وهنا علق السيد الرئيس السادات قائلاً

« اعملوا حسابكم المعركة طويلة ، ويجب الاقتصاد لتحقيق الهدف ، ويجب تحقيق الهدف »

تقرير مدير المهندسين :

- خطة التأمين الهندسي للقوات الجوية تم تأمينها (هنا رد الفريق حسني قائلاً « غير كافية »)
- تم استكمال إنشاءات الدفاع الجوي والمهم حاليًا الإصلاح وخطته وتحرك لواء للجبهة
- أعطيت القوات البرية كل الاهتمام وتمت التجهيزات الهندسية .
- المعركة معركة مهندسين وتبدأ بنا ، وهذا يحتم علينا الإسراع في فتح الساتر وتدبير مهمات الكباري .
- حياتنا هي حماية المعابر ويجب تركيز الدفاع الجوي لحمايتها .

هنا قال الفريق محمد علي فهمي :

« المعبر نقطة يصعب إصابتها إصابة مباشرة ، إلا بالقنابل المتقدمة والليزر ، وعمومًا نحن موفرين كل ما يمكن توفيره لحمايتها » .

ثم قال رئيس هيئة الإمدادات والتموين :

« الإمداد وانتظام وُصوله ، يحتاج إلى تركيز في التصنيع ، وإمدادنا بمعدات عبور مهم جدًا » .

تقرير قائد الجيش الثالث الميداني :

- لا تغيير في المهمة والجميع متفهمين لها .
- حدث تغيير في التخطيط للواء ١٣٠ مشاة الأسطول ، وكذا استخدام كتائب الصاعقة .
- تم عمل مشروعات بجنود للواءات وهى قادرة على تنفيذ المهام .
- تم مراجعة الجيش وأعتقد أن النتيجة مرضية .
- تم التجهيز الهندسي المصاطب والمنطقة الابتدائية للهجوم .
- زود العدو الكمائن وداوريات الاستطلاع ونشاطه التدريبي الليلي .

تقرير قائد الجيش الثاني الميداني :

- تم إعادة التجميع عدا بعض وحدات المهندسين ، التى ينتهي إعادة تجميعها صباح ٤ أكتوبر .
- جاري إعادة التجميع الداخلي في ثلاث ليال تختصر إلى ليلتين .
- تم تدريب جميع القيادات واللواءات بكامل معداتها تمامًا كالحرب وحقق نجاحًا .
- لا تعديل في التخطيط الموضوع عدا الصاعقة .
- بإذن الله سنحقق المهمة .
- عملت نداء كشحن معنوي للقوات .
- أجبرت الناس على استخدام جزء من التوباز سعت س ، يحمل أسلحة مهمة ، وكذا عبور البلدوزر على عائمات ج س ب .

وهنا علق الرئيس السادات قائلاً :

« وصلتني معلومات من مراسل عسكري لجورنال سويسري. ، ويتكلم عن بور سعيد ورقبة الوزة (المنطقة ما بين القنطرة وبور فؤاد) وعمل عملية سياسية لبور سعيد وغيرها وأن

لنا نقطة في سيناء (يقصد موقع شرق بـور فؤاد) ، ويريد الإسرائيليون عمل شيء عليها . وأنا سعيد أننا سنضرب نقطة العدو شرق بور فؤاد ونستولي عليها ».

ورد اللواء الجمسى قائلاً :

« الجيش الـثاني فيه قوات أكـبر من مطلبـه !! » ولم يعلق أحد عـلى هذا **إلا الرئيس السادات قال :** « البحريـة مسئولة عن حـماية جنب الجيش الـثاني ، وبعد الاستـيلاء على القنطرة ونقطة العدو شرق بور فؤاد يجب حرمان العدو من أي تدخل » .

تقرير قائد منطقة البحر الأحمر :

- لا تغيير في المهمة .
- القوات جاهزة ومعنوياتها جيدة .

هنا أيضًا **علق الرئيس السادات قائلاً :**

« يجب أن تتوقع أن العدو سيعمل ألاعيب وغيرها . . »

تقرير قائد المنطقة المركزية العسكرية :

قبل أن يـلقي قائد المـنطقة المركـزية العسكـرية تقريره ، قـال مدير المخابرات الحـربية والاستطلاع : « يحتمل أن يقوم العدو بأعمال ضد الجبل الأحمر ومدينة نصر .

واستطاع العدو التأثير على البدو العرب في إسرائيل للتخريب .

وأحضر العدو دبابات روسية ت ٥٤ من المستولى عليها من قواتنا في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وربما يستخدمها للهجوم المضاد ، وهذا قد يحدث لخبطة في قواتنا لذا يجب تمييز الدبابات .

وقال اللواء عبد المنعم خليل :

والذي كان مكلفًا قبـل أقل من شهر بالمرور على قوات الجيش الثانـي والثالث لمراجعة موقف الاستعـداد للمعركة : « الحقيـقة إني متفائل بالـنصر والروح المعنوية لـقوات الجيش الثالث والثاني ، ووحداتي التي أرسلتها إلى الجيـوش عالية ، وستحقق قواتي التي أرسلتها النصر إن شاء الله .

سيتم الانتشار آخر ضوء يوم ٤ أكتوبر

القوات تستعد في محلاتها لأعمال التأمين أو الدفاع .

تم التنسيق مع لواء مدرع الحرس الجمهوري »

ثم علق الرئيس السادات قائلاً :

« للعدو عملاء في كل المنطقة ويمكنه عمل أي شيء في الداخل ، القاهرة بها ٦ مليون وله عملاء في السفارات الأجنبية ومصريين ، ويجب تنسيق ذلك مع ممدوح سالم (وزير الداخلية) وعبد السلام توفيق (رئيس المخابرات العامة) ونصار (مدير المخابرات الحربية والاستطلاع) لإحكام ذلك مع المنطقة المركزية والشرطة العسكرية . .

حاولوا تغيير البيريه الأحمر وعمل أي شيء وكذا الخوذة . . »

تقرير قائد قوات الصاعقة :

بدأ العميد نبيل شكري تقريره بآية قرآنية

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ صدق الله العظيم [الصافات / ١٧٣]

وشرح خطة الصاعقة ، وقال إن قوات الصاعقة على استعداد تام وقد قاموا بمشروعات مشابهة للمهام المطلوبة والقوات جاهزة للتنفيذ .

ثم قال : « أرجوا وضع النقط التالية في الأهمية :

الإمداد التالي للوحدات في الداخل بأي وسيلة .

ورد عليه الفريق الشاذلي قائلاً : « نحن ملتزمين بالإمداد بعد ٤٨ ساعة »

التنظيم والإدارة :

- القوات حوالي ١ر١٢٠ر٠٠٠ بالضباط
- الاستكمال ٥ أضعاف عام ١٩٦٧
- ١٢ فرقة مشاة ومدرعة .
- نسبة الاستكمال حتى التعبئة من ٩٢ إلى ٩٨ ٪ ، وتصل إلى أكثر من ١١٢ ٪ لسد الخسائر .

الإمدادات والتموين :

- أوضاع القوات والقواعد الإدارية تسمح العملية بالكامل وتحمل ضربة العدو للإحباط .
- الاحتياطيات موزعة على أنساق وتضمن استمرار القتال .
- الحملة قادرة على الإمداد حتى مع تعرض السكة الحديد للضرب الجوي .
- تم عمل خطة فيما يختص بتعرض موارد الوقود .
- سيعمل العدو على عزل ميدان المعركة ويجب تأمين المعابر .
- في حالة التطوير يجب استعادة صلاحية الطرق بجهد مع المهندسين .
- أرى ضرب مصادر المياه والوقود في سيناء لحرمان العدو منها .

وانتهى بذلك تقارير القادة والرؤساء ، وعلق الرئيس السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الجمهورية قائلاً :

تعليق الرئيس السادات على الخطة ودرجات الاستعداد :

« بعد العرض الكامل وبعد الشوط الطويل ٦ سنوات ألم ومرارة وجراح ، أتمنى أن تسمع مصر حديث اليوم .. وهو وحده كاف لإعادة الثقة ولم الجرح الأليم المهين .. الحمد لله .. جت اللحظة التي نستطيع فيها أن ننس مرارة ما مضى ونفكر ونخطط لرد شرفنا ونقول للعالم إننا لم نمت وغير مستعدين للموت .. »

في كلامي مع القائد العام ألخص الموقف كالآتي :

هكذا استكمل الرئيس السادات تعليقه ، وقال : « إسرائيل بعد معركة ٦٧ وخاصة من وقت وقف إطلاق النيران من ٣ سنوات تريد أن تؤكد المفهوم ، أنها قوة لا يمكن لأحد تحديها ، وبذا يدور على أسلوب الاتفاق أو التسليم . وخصوصًا وصلت إلى مرحلة وضع اليد على الأرض زي بيوت الرهونات !!

نترك كل شيء ونمسك الاستراتيجية الأساسية لها ، وهي واضحة كاملاً **أن إسرائيل قوة لا قبل لأحد بها في المنطقة** عمليات عسكرية تفوق عسكري بمعاونة أمريكا ، وتؤكد نظريتها في الوجود **بالقوة تفرض ما تريده** وكان عام ١٩٦٧ وما حدث .. وهي تعتبر أن

المسألة مسألة وقت ، وبعد فترة قصيرة مصر ستركع لأنه ليس هناك سبيل آخر . . . مرارة من أقرب الناس ، ومرارة من داخلنا ، وكلنا نعرف أسباب هذه العوامل . .

واليوم نستعرض ما حدث معي في روسيا وأقرأ في عيونهم متى ستحاربوا وأكثر من هذا شعبكم هنا مع كل إيمانه بكم أمله مشفق ويهتز ، وهو يريد أن نبدأ المعركة غدًا ولكن يخشى أن يهتز كيانه . .

اليوم وإحنا قاعدين نكتب تاريخ مصر الحقيقي بكم أنتم . . وقبل هذا الاجتماع بدأ تمهيد طويل منذ توليت وقبله وأنا حريص على بدء معركتنا .

واليوم هل نحن أحياء أو أموات ببساطة أمام العالم غير معقول أن اليهود منتشرين على الجبهة ولا إزعاج لهم بترول . . مدن . . تحرك . . الحمد لله انتهت فترة الآلام والمرارة . .

أنا بأعد الساحة لكم دوليًا وعربيًا وداخليًا . .

دوليًا - مؤتمر القمة الأفريقي وعرفتم النتائج .

مجلس الأمن انعقد بناء على إلحاحي شخصيًا ، والكلام كله على فتح قناة السويس وخلاص . . واستخدمت أمريكا الفيتو وأخذنا ١٤ صوت من ١٥ . . . وهذا انتصار لنا .

- **أمريكا** : وشعرت أمريكا بالعزلة وحتى إسرائيل بدأت تنتقد هذا . .

وتم كشف موقف أمريكا خصوصًا لأصدقائها العرب . .

- **مؤتمر عدم الانحياز** : تم مؤتمر عدم الانحياز وكان قوي أكثر من ٨٠ دولة والتيار جارف رائع بالنسبة للقضية والساحة العالمية جاهزة .

عربيًا:

أنا أعمل بالساحة العربية منذ سنة ، رغم السخافات التي حصلت ، واستطعنا أن نلم التمزق الموجود إلى قناعة سياسية أنه يجب ألا تستمر حالة اللا سلم واللا حرب . .

والسعودية : اشترت لنا حوامات تصل من نوفمبر ١٩٧٣

وسربي ميراج من يناير ١٩٧٤

وأعطت وديعة للوضع الاقتصادي .

الكويت تشتري سرب F1 فيما بعد الميراج أو ميراج ٥ والتفاوض سائر تمامًا ، ويمكن تشتريه السعودية .

سوريا القائد العام قائد الجبهتين وسأخطرهم اليوم بكل شيء والتنسيق كامل .

وهكذا وصل الموقف العربي إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه قبل بدء المعركة لا شيء نأخذه بعد هذا من العرب **الطاقة ورأس المال** والجميع منتظرين ماذا سنفعل ؟ هل نحن جادين أم لا ؟

ليس هناك أكثر من هذا ويجب أن أثبت أني قادر **هكذا أكد السادات** . . .

اما في الداخل :

فهي حالة اللا سلم واللا حرب لا تنظروا إلى شيء والانفعال أمر طبيعي ، والمقصود الاستنزاف داخليًا . لابد من بدء القتال هذه السنة وأنتم تعلمون باستمرار ونهيئ الميدان ، ولا نعمل شيء فلا نحصل على تأييد (هنا تذكرت ما قاله الرئيس السادات عندما زار جبهة القتال في الدفرزوار في أوائل ١٩٦٩ عندما سأله أحد الضباط لماذا لا يستعد الشعب للقتال بدل ما هو فيه من أغاني خليعة ركيكة فقال له حكاية الذئب والغنم !!) .

الاختبار والقرار :

قال الرئيس السادات :

« أشرف لنا ألف مرة أن نأخذ قضيتنا في يدنا مهما كانت التضحيات حتى لا نموت موتًا أكيدًا بالسكون ، ونقول للعالم نحن أحياء ولن نموت ولنا قضية ، والعالم كله يعرف أنه في تاريخ مصر ٧٠٠٠ سنة لم يواجه حاكم أو البلد ما نحن فيه من اختبار وقرار ، وهي مسئوليتنا جميعًا . . . أنا وأنتم والقوات المسلحة .

أحمد الله بعد هذا الألم نصل إلى اللسمات الأخيرة عما سنقوم به ، ويسترد شعبنا ثقته في نفسه بكم وبالحركة . . »

الهدف :

كسر التحدي الإسرائيلي بضرب الفلسفة الاستراتيجية الإسرائيلية ومخططات حكمها . .

المعركة طويلة وفي مصلحتنا طولها ، فهو صراع أجيال ، وعلينا تسليم المسئولية إلى من بعدنا بأمانة وشرف **واطلب منكم** :

- لا تفقدوا أعصابكم أو توازنكم .
- لا تتصرفوا بعصبية أو جنون لا سياسيًا ولا عسكريًا .
- وادخلوا المعركة ببرود وهدوء وإصرار على الهدف .
- على كل واحد فيكم تأدية واجبه ولا يخاف .

انا اتحمل وراءكم المسئولية كاملة تاريخيا وماديا ومعنويا ، وائق ثقة كاملة فيكم .

وعلى هذا الأساس تصرفوا واعملوا بكل ثقة واطمئنان وحرية ، وننجز مهمتنا إن شاء الله ، ونستعيد ثقتنا أمام العدو والصديق .

ثم اكد الرئيس السادات على الآتي :

- لن يذهب دور كل واحد منكم ويجب أن نكتب أدوارنا **بأمانة وشرف وتجرد .**
- ولن يتردد الشعب لحظة وراءكم .
- حافظوا على الغرض .
- احتفظوا بهدوءكم كاملاً مهما حدث .

ادعوا لكم بالتوفيق وأنا معكم في المعركة .

ثم اختتم هذا التعليق بالآتي :

إن شاء الله اجتماعنا المقبل بعد المعركة ، وندخل للمراحل التالية ، نغير الموقف ونزيح الكابوس الرهيب ونستعيد كل ما فقدناه .

ربنا يوفقكم

أنور السادات

أول أكتوبر ١٩٧٣

٥ رمضان ١٣٩٣

الفصل الثالث

خواطر محارب قديم عن الحروب العربية الإسرائيلية

امتد الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل ، نحو ثلث قرن من الزمان ، فيما بين أول ديسمبر ١٩٤٧ ، عندما بدأت الهاجاناه في تنفيذ الخطة « دال » لاحتلال المناطق ذات الأهمية الحيوية بفلسطين ، بينما الانتداب البريطاني يتأهب للجلاء عنها ، وبين العدوان الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٨٢ .

وقد وقعت خلال تلك المدّة ست جولات متتالية ، كانت الجولة الأولى أطولها في الزمن ، إذ تجاوزت ١٦ شهرًا كما كانت أكثرها في عدد المعارك والمصادمات التي بلغت ٦٧ معركة أو مناوشة كبيرة . وكانت الجولة الثانية - حرب العدوان الثلاثي - أكثرها في عدد الأطراف المتحاربة ، بينما كانت الجولة الثالثة في صيف عام ١٩٦٧ أشدها حسمًا وأقصرها زمنًا ، أما الجولة الرابعة في خريف ١٩٧٣ وحرب الاستنزاف التي سبقتها . . فكانتا أوسعها بالنسبة لمساحة المسرح التي دارت عليه .

وتجدر ملاحظة أن هذا الصراع حفلت جولاته الست المتلاحقة بكل أنواع القتال ، وشتى أشكال المناورات الميدانية ، فكانت هناك المعركة التي دار القتال فيها من الاتصال القريب بين الخصوم ، والأخرى التي وقعت في شكل معركة تصادمية ، والثالثة التي حدثت بالهجوم من العمق ، والرابعة التي دارت بالهجوم من الحركة ، فاكتمل للصراع نتيجة ذلك كل أنواع العمل التعرضي المعروفة لمعركة الأسلحة المشتركة المعاصرة .

وبالمقابل . . اتخذ الخصم موقف الدفاع بكل أنواعه أيضًا ليواجه الهجمات سالفة الذكر ، فكانت هناك الدفاعات الثابتة تارة ، والدفاعات المحصنة تارة أخرى ، والدفاع المرن في بعض الأحيان ، والدفاع مع تركيز الجهد الرئيسي في العمق ، ثم الدفاع التعطيلي في مواقف قتالية بعينها .

ولم يسلم سجل الحرب من أعقد أشكال المعارك وأبغضها إلى نفوس القادة والجنود ، سواء أكانت انسحابًا منظمًا ، أم ارتدادًا مشوبًا بالفوضى والغموض ، أم انهيارًا ضاعت بسببه الجيوش فلم تسلم منها إلا نسبة ضئيلة من الأفراد والأسلحة والمعدات ، التي استطاعت النجاة إلى بر الأمان .

وكان للمناورة حظ عظيم في المسرح ؛ إذ تم هجوم أحد الأطراف باختراق مواجهة خصمه حينًا ، وبالالتفاف القريب على أجنابه أحيانًا ، وبالتطويق الواسع بعض الوقت ، كما مارس الخصوم المناورة بالبعد الرابع والاقتحام الجوي الرأسي بالحوامات الذي ولد فوق مدينتي بور سعيد وبور فؤاد ، إبان الغزو الإنجلوفرنسي في خريف عام ١٩٥٦ ، وشبَّ عن الطوق في الجولة الثالثة ، ثم تفاقم أمره بعد ذلك فزاد عدد معاركه ، واتسع مجال عمله بصورة ملفتة للنظر .

وكما اختلف حجم القوات التي اصطرعت في المسرح ، اختلف عدد أفرادها وكثافة سلاحها وقوة تدميرها ، إذا لم يتجاوز إجمالي عدد الجيوش في الجولة الأولى ١٩٤٧ - ١٩٤٩ بضع آلاف ، كانت مسلحة بمئات المدافع وعشرات الدبابات العتيقة وبآحاد الطائرات والسفن التي عفى عليها الزمن ، فإذا بها في الجولة الرابعة - حرب رمضان المجيد - تناهز المليون جندي المدجج بأحدث الأسلحة ، وبآلاف المدافع والصواريخ والدبابات الحديثة ، وبمئات الطائرات والسفن التي كانت أخر صيحة في ترسانات الحرب الحديثة .

وكان من الطبيعي أن تتأثر نتيجة ذلك الكثافات التكتيكية في أرض المعارك ، والتعبوية في مسارح العمليات ، والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، إذ زادت المعدلات إلى نسب لم تعهدها الحروب من قبل ، فارتفعت من مجرد ربع كتيبة في الكيلومتر المربع من المواجهة في الجولة الأولى ، إلى أكثر من كتيبة في الجولة الرابعة ، ومن نحو ٥ مدافع إلى أكثر من ٥٠ مدفع ، ومن دبابة أو اثنتين إلى عشر وعشرين دبابة في كل كيلومتر مربع من المواجهة .

وبعد أن كان أكثف قصف جوي استراتيجي لا يتجاوز الخمس طائرات التي لم تكن أي منها تحمل أكثر من ٤٠٠ كيلوجرامًا من القنابل البدائية ، إذ بها في الجولات الأخيرة تتجاوز المئات من الطائرات الفائقة التطور ، بما تحمله كل واحدة منها في جوفها من قنابل يزيد وزنها عن ٤٠٠٠ كيلوجرام ، فضلاً عن الصواريخ الموجهة بالليزر ، وبالتليفزيون ، وبالقصور الذاتي ، وبالأشعة تحت الحمراء ، وبركوب شعاع الرادار ، علاوة على مقذوفات النابالم ،

والقنابل الارتجاجيـة ، والانشطارية ، وأوعية الحرب الإلكترونية ، والإلكـترونية المضادة ، وما يعرج إلى الفضاء من أجرام وأقمار صناعية .

وعلى حين كان بعض الطيارين يلقون قنابلهم بأيديهم من قمرة القيادة في الجولة الأولى ، صارت أجهـزة الإطلاق والتوجيـه في الجولات الأخيرة مـعجزة من معـجزات العلم المـتطور ، فـصكـت الأسـماع لـلمـرة الأولـى تعبيرات Fire & Forget Missiles ، والقنبلة الذكية ، The Smart Bomb ، وغير ذلك من المقذوفات التي لا تخطئ فريستها .

وبينمـا لم تتجاوز زنة ما القـته المدافع والهاونات فـي أي فترة تجهيز نيرانـي خلال الجولة الأولى مجرد الخمسة أطنان أو العشرة ، إذ بها تتضاعف في الجولة الرابعة ألف مرة فتبلغ زنة ما ألقته المدفعية المـصرية والهاونات والصواريخ الأرضية والمقاتلات القاذفـة ، على امتداد ٥٣ دقيقة عصر السادس مـن أكتوبر ١٩٧٣ الثلاثة آلاف طن بقـرب بطن حصون بارليف . أمـا ما صبته على امتداد أيـام الجولة الاثنين والعشريـن فقد تجاوز ٢٥ ألف طن من المواد شـديدة الانفجار ، فتساوت قوتها التدميرية مع قنبلة هيروشيما أو كانت أشد أثرًا .

وفيما يختص بطبـيعة المسرح . . فقد اختلفت تضاريسه بين الـرمال المتماسكة ، والأخرى الناعـمة ، والصخور الجـبرية والجلاميـد البركانيـة ، والأراضي الزراعية والـغابات الكثـيفة ، والمستنقعات السبخية والأراضي التي يغطيها الجليد بعض العام .

أما مساحة المسرح الذي دار فوقه القتال بـين الخصوم . . فلم تتجاوز في الجولة الأولى ١٠ آلاف كيلومتر مـربع من أرض فلسطين ، وشريحة أرضـية إضافية من سيناء الشـرقية ، فكانت أقصى جبـهاته بعدًا عن قـلبه لا تتعدى المـائة كيلومتـرًا . فلما انتهـت الجولة الثالثـة بالقوات الإسرائيلية ، عند قناة السويس ونهر الأردن وهـضبة الجولان ، تضاعف المسرح في المساحة فجأة لأكثر من عشر مرات ، حتى أصبحت أدنى جبهاته إلى قلبه تبعد ما لا يقل عن ٢٥٠ كيلو مترًا عنه .

ثم تفاقـم الحال بحـرب الاستنزاف ، التـي يعتـبرها بعض المحللين العسكريين جولة قائمة بذاتها ، إذ امتد نـشاط الطيران الإسرائيلي وقوات الـكوماندوز إلى أقصى جنوب الصـعيد بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى مشارف بغداد ، ليدمر المـفاعل العراقي أوزيراك ، وإلى عاصمة تونس ليغتال بعض زعماء فلسطين .

وانحصر القتال في المسرح البحري أول الأمر داخل المياه الإقليمية المتاخمة لسواحل سيناء وفلسطين ، ثم خرج إلى البحار والمحيطات حتى تجاور في الجولة الرابعة باب المندب في أقصى جنوب البحر الأحمر .

وينفرد صراع العرب مع إسرائيل بتكرار جولاته في فواصل زمنية قصيرة نسبيًا [٨ (١ - ٢) - ١١ (٢ - ٣) - ٦ (٣ - ٤) - ٩ (٤ - لبنان سنوات] (١) ، لا تدع مجالاً للاعتراض على صحة عقد المقارنات بينها ، أو جدية التحليلات المستنبطة من وقائعها وإحصائياتها على زعم أن المواقف غير المواقف ، أو أن العصر غير العصر ، أو الخصوم غير الخصوم ، أو المسرح غير المسرح ، أو العتاد غير العتاد .

وحتى مذاهب القتال ونظرياته وأدواته كانت كلها متشابهة ، إذ لم يختلف منها بين جولتين متتاليتين بأكثر من جيل واحد من التطور أو التحسين ، على حين ظلت الغالبية على ما كانت عليه في الجولات السابقة ، بل وبنفس العتاد .

ولعل العامل الإنساني هو أبرز الأمثلة على ذلك . . فقد قام على تخطيط وإدارة هذا الصراع على امتداد ثلث القرن ، نفس الأشخاص الذين أثرت صفاتهم الموروثة والمكتسبة على مواقف القتال ومساراته ونتائجه ، وتأثرت بهم ماديًا وفكريًا ومعنويًا ، بدءًا بأيام المناوشات الأولى ضد بعضهم البعض وهم لا يزالون قادة فصائل أو سرايا في جولة ١٩٤٧ - ١٩٤٩ ، ومرورًا بحرب العدوان الثلاثي على مصر ، وقد أصبحوا قادة كتائب ، ثم قادة ألوية أو فرق في جولة صيف ١٩٦٧ ، فقادة جيوش أو قوات مسلحة في حرب رمضان المجيد ، فوزراء دفاع في جولة ١٩٨٢ ، بل ورؤساء وزراء ورؤساء جمهوريات أيضًا مثل هرتزوج ووايزمان ومحمد حسني مبارك وحافظ الأسد وغيرهم .

فهذا المشير أحمد إسماعيل علي قاد سرية في الجولة الأولى ، ولواءً في الثانية ، وعمل رئيسًا لأركان الجبهة في الثالثة ، ثم القائد العام الاتحادي لجيوش مصر وسوريا في الرابعة .

ومثله الفريق سعد الحسيني الشاذلي الذي قاد فصيلة في الأولى ، وكتيبة في الثانية ، وفرقة في الثالثة ، ثم رئيسًا لأركان القوات المسلحة المصرية في الرابعة .

أما اللواءات محمد سعد الدين مأمون وعبد المنعم محمد واصل وعبد المنعم محمد خليل فقد عمل كل منهم قائد فصيلة في الأولى ، وسرية في الثانية ، ولواء في الثالثة ، وجيش في الرابعة ، ثم تولى بعضهم منصب المحافظ والوزير بعد ذلك .

---

(١) ٨ سنوات ما بين الجولة الأولى والثانية ، ١١ سنة ما بين الجولة الثانية والثالثة ، ٦ سنوات ما بين الجولة الثالثة والرابعة ، ٩ سنوات ما بين الجولة الرابعة وحرب لبنان .

وعلى الطرف المضاد قاد الفريق موشيه ديان كتيبة في الأولى ، ثم أصبح رئيسًا للأركان في الثانية ، ووزيرًا للدفاع في الثالثة والرابعة . وسار الفريق حاييم بارليف والفريق دافيد اليعازر في درب الحياة الميدانية على نفس الخطوات ، ولكن بتؤدة أكثر من ديّان الذي احتضنه بن جوريون ، فكان كل من بارليف واليعازر قائد فصيلة في الجولة الأولى ، ولواء في الثانية ، وجبهة قتال في الثالثة ورئيسًا للأركان بعدها أو في الجولة الرابعة ، ثم تولى بارليف الوزارة بينما عزل اليعازر من منصبه لدوره الذي سبب الهزيمة لإسرائيل في المرحلة الافتتاحية من الجولة الرابعة .

أما العميد شمويل جونين فكان قائد فصيلة في الجولة الأولى ، وسرية عام ١٩٥٦ ، واللواء ٧ المدرع ضمن مجموعة عمليات إسرائيل التي اجتاحت دفاعات رفح على ١٩٦٧ ، ثم قائد جبهة سيناء على ١٩٧٣ التي عزل فيها من منصبه لما ارتكبه من أخطاء أثناء المرحلة الافتتاحية لتلك الجولة .

وينطبق نفس الأمر على كوادر ضباط الصف من المقاتلين والعاملين في الشؤون التقنية والإلكترونية والفنية من العرب والإسرائيليين ، إذ نجد أن من كان يبلغ من العمر ٤٥ سنة عام ١٩٧٣ قد حارب في كل ما سبق من جولات ، بينما اشترك من كان يبلغ الخامسة والثلاثين في الجولات الثلاث الأخيرة فقط ، أما من كان عمره ٢٥ عامًا فلم يشترك إلا في الجولتين الثالثة والرابعة . وما من شك في أن أداء المخضرمين منهم قد ترك بصماته على مضمون القتال سلبًا وإيجابًا .

ولما كانت أطراف القتال جميعها غير منتجة لأغلب أسلحته وذخائره ، وخصوصًا المتطور منها . . فقد صار اعتمادها شبه الكامل على ترسانات العالم ، فتزود العرب بادئ ذي بدء - وبعناء شديد - من ترسانات الغرب الضنينة عليهم ، والتي ظلت تحتكر عملية تزويدهم به حتى كسرته مصر بصفقة السلاح التشيكي عام ١٩٥٥ ، ذات الأبعاد السياسية الواسعة والتي راحت بعض الدول العربية تحصل بعدها على حاجتها من الكتلة الشرقية لفترة طويلة من الزمن ، قبل أن تستأنف تنويع المصدر حيث تجد الأفضل .

وفعلت إسرائيل نقيض ذلك تمامًا إذ بدأت بترسانة الشرق مركزة على السلاح التشيكي الذي أمدتها به مؤسسة سبرويوفكا - برونو Sproyovka - Brono عن طريق عميلها الصهيوني سمسار السلاح العالمي نحميا أرجوف ، فحصلت إسرائيل على غالبية الأسلحة

والذخائر التي قاتلت بها العرب في الجولة الأولى ، ثم راحت بعدها تغير المصدر ، فتنقلت بين ترسانات فرنسا عام ١٩٥٦ ، ثم ألمانيا الغربية عام ١٩٦٧ ، حتى استقرت ولا تزال على ترسانة الولايات المتحدة التي احتكرت تزويدها بالسلاح الحديث ، قبل أن ينزل السوق أو تسمح به لحلفائها الغربيين ، وذلك بهدف أن تضمن لإسرائيل التفوق النوعي الواسع على ما بحوزة العرب ، وتسبقهم بجيل واحد من السلاح على الأقل وبشكل دائم .

وكان من الطبيعي أن تنتهز تلك الترسانات الفرصة ، فتعتبر حلبة الصراع العربي الإسرائيلي حقلاً للتجارب الميدانية بما تنتجه من أسلحة وذخائر ، بغية تطويرها وتعديل الإنتاج ليصبح أكثر ملاءمة للظروف والمؤثرات الفعلية في أرض المعركة ، وذلك على نحو ما اعتمدت المدارس العسكرية المعاصرة على معاركه المتتالية ، لتصقل مذاهب الحرب وأساليب القتال في معارك الأسلحة المشتركة المدينة من واقع التجربة الميدانية الحقيقية وخبرات الحروب .

وخدمت هؤلاء وأولئك الوقفات التعبوية والهدنات التي فصلت بين العمليات الحربية ، وتلك الوقفات الاستراتيجية التي فصلت بين الجولات نفسها ؛ إذ كانت مناسبة تمامًا من حيث المدة الزمنية لإتمام الدراسات وإجراء التعديلات والتطويرات المستمرة من تلك الدراسات ، فلم تكن الوقفات قصيرة بما يجبر تلك الدراسات على السرعة فتخرج سطحية أو قاصرة ، كما لم تكن طويلة حتى يعفو عليها الزمان ، أو يعترض معترض أنها قد استنفذت أغراضها قبل أن تتاح لها فرصة التجربة الميدانية إثبات ذاتها تحت النار .

ولهذا تابع العالم أجمع وباهتمام لا مزيد عليه نتائج وخلاصات ثروات البحث العلمي ودراسات خبراء الحرب ، وما وصلوا إليه من نتائج ضمتها آلاف الكتب والمراجع بكافة اللغات وعلى امتداد قارات المعمورة .

ولعل أبرز الفوائد التي طرحها تكرار الجولات العربية الإسرائيلية ، على العلم العسكري وفق الحرب ، أنها صممت في الجولات التالية بعض الجنوح إلى الخطأ في السابقة نتيجة بريق النصر الكبير الذي تعجله البعض ، فعزوه إلى هذا السلاح أو ذاك على نحو ما حدث للطائرة في دورها الحاسم الذي بهر الدنيا بضربتها الجوية الشاملة المفاجئة مساء الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ في الجولة الثانية ، ثم بصورة أشد إبهارًا صباح الإثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ في الجولة الثالثة بما دفع البعض إلى أن يبشر بظهور السلاح الحاسم الذي يملك زمام النصر في المعارك المقبلة ، والذي يغني عن سائر الأسلحة أو أغلبها !

ولهذا . . فلم تكد نيران الجولة الثالثة تخبو في المسرح ، حتى خرجت بعض المراجع تبشر بعملاق فريد لا يستطيع أن يقف في طريقه أحد ، وهو الطائرة التي تسيدت المسرح حتى كادت أن تغني عما عداها . ولم تطل بتلك الدعوة المغرقة في الخطأ الزمن حتى وقعت في الجولة الرابعة فإذا بهذا العملاق يتضاءل في الحجم ، حتى يصبح قزمًا لا يستطيع الاقتراب من غابة صواريخ الدفاع الجوي المصرية التي أجبرته على الابتعاد عن أرض المعركة ، بما لا يقل عن ١٥ كيلومترًا حتى لا يتعرض للهلاك المحقق .

هذا عن الطائرة - ذراع إسرائيل الطويلة - أما عن الدبابة - قوة الصدمة في معاركها البرية - فقد تعددت أدوارها في خوض المعارك ، واختلفت مهامها فيها بين تحقيق التعاون الوثيق مع تشكيلات المشاة القائمة بالدور الرئيسي في اختراق هيكل العدو الدفاعي ، وبين قيام الدبابة نفسها بالدور الرئيسي بالاندفاع الجسور مستغلة قوة الصدمة الذاتية ، التي هي أهم عناصر القتال الخفيف الحركة (الحرب الخاطفة) لتقتحم الدفاعات المجهزة على عجل ، أو تطور الهجوم الناجح في عمق دفاعات العدو ، أو تلتف حول الأجناب المكشوفة ، أو تطوق الدفاعات لتهز الاتزان الاستراتيجي أو التعبوي في المسرح بالقبض على بعض الهيئات الحيوية في عمقه القريب أو البعيد ، فتقوض نظامه الدفاعي ، وتفصل بين الجبهة ومؤخرة الدولة مثلما حدث فوق مضايق سيناء الغربية في الجولتين الثانية والثالثة ؛ حيث فقدت القوات البرية المصرية في الأخيرة ما يناهز ٨٠ ٪ من عتادها ، وسقطت نسبة عزيزة من شهدائها .

وكثيرًا ما عملت الدبابة في نسق كانت المشاة الميكانيكية أو حتى المشاة المترجلة هي النسبة السائدة فيه ، كما عملت كثيرًا في أنساق كانت الدبابة هي التي تشكل النسبة السائدة فيها ، وذلك طبقًا لطبيعة الأرض ودرجة صلابة الدفاعات ، وحالة الموقف الجوي الذي كان في بعض الأحيان يوفر لها التفوق الجوي فوق جزء من المسرح لجزء من النهار . أو السيطرة الجوية فوق جزء من المسرح أغلب الوقت ، أو السيادة الجوية فوق كل المسرح كل الوقت ، على نحو ما أحرزته الطائرات الإسرائيلية في الجولة الثالثة بمفردها ، ومن قبل ذلك في الجولة الثانية بفضل ما قامت به نيابة عنها طائرات الكانبرا البريطانية والمستير الفرنسية .

وهنا ، وللمرة الثانية ، يكشف تكرار الجولات عن زيف الاستنتاجات التي تعجل بعض الخبراء بالقفز إليها قبل استبيان مختلف الحقائق والعوامل المؤثرة ، عندما راحوا يضخمون من دور الدبابة في مسرح الحرب الحديثة ، حتى طالب بعض كبار قادة إسرائيل بأن يكون الاعتماد الأوحد عليها في قواتهم البرية .

وعندما دفعوا بها صباح الاثنين الأسود ٨ أكتوبر ١٩٧٣ لترد القوات المصرية من حيث أتت ، وتحطم عظامها في قاع القناة ، برز لها جنود مصر المسلحون بالمدافع والقواذف المضادة للدبابات فقهروها حتى عاد غلاة المنادين بها لتكون سلاح القوات البرية الأحسم ، يعترفون بالدور العظيم للرجل ضد الدبابة .

والواقع أن الفريق سعد الحسيني الشاذلي كان قد وعى الدرس جيدًا من الجولة الثالثة ، وهو يرسم خططه للجولة الرابعة ، عندما استغل حماية غابة الصواريخ للقوة التي جهزها لاقتحام القناة واجتياح حصون بارليف ، ليوفر لها ظروف العمل المتكافئ بعيدًا عن تأثيرات التفوق الجوي الإسرائيلي المعاكسة ، ثم اكتفى بوصولها إلى مسافة ٨ - ١٠ كيلومترات شرق القناة لتظل تحت وقاية غابة الصواريخ في نفس مواقعها ، مع تزويد الوحدات والتشكيلات المقاتلة بنسبة مضاعفة من الأسلحة المضادة للدبابات ؛ لتتحطم عليها هجمات تشكيلات العدو المدرعة وضرباتها المعاكسة .

إن تلك الفكرة الصائبة كان قد سبقه إليها الفيلد مارشال مونتجمري في العلمين في أكتوبر - نوفمبر ١٩٤٢ ، عندما أمر مدرعاته بالانتشار على الحافة الخارجية لرأس الجسر الذي احتله من دفاعات روميل ، ثم التوقف هناك حتى يطلق روميل مدرعاته في الهجوم المضاد المعهود منه فيصير تحطيمها بالأسلحة المضادة وبالدبابات التي تعمل من مواقع Hull down ، فلما أنجزت تلك المهمة بنجاح ، أطلقها مونتجري غربًا وهو يتمنى لها صيدًا طيبًا على نحو ما ذكره في كتابه عن سيرته الذاتية .

بهذا الاستخدام المبتكر للسلاح المضاد للدبابات في مواجهة التشكيلات المدرعة ، اكتسب المدفع - وهو سلاح دفاعي محصن - قوة هجومية ذات تأثير فعال بضرر ما حُرِمَ سلاح هجومي - الدبابة - من بعض قوته الهجومية ، على نحو ما أثبتته مواقف القتال في حرب رمضان المجيد على جبهة القتال في يومين بارزين من سجلها القتالي :

يوم الإثنين ٨ أكتوبر ١٩٧٣ عندما تحطم الهجوم المدرع للجنرال أبراهام آدان ، على صخرة الدفاع المضاد للدبابات على مسافة ١٠ كيلومترات شرق قناة السويس .

يوم الأحد ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ عندما تحطمت المفارز الخمس المصرية التي انطلقت بمهمة تطوير الهجوم إلى مضايق سيناء الغربية على صخرة الدفاع المضاد للدبابات وقذائف الطائرات الإسرائيلية التي وجدت في الدبابات المصرية صيدًا سهلاً ، بعد أن خرجت عن مدى حماية

غابة الصواريخ غرب القناة ، ولم تكف كتائب الدفاع الجوي القليلة التي صاحبتها لتوفر لها الحماية المطلوبة .

فأما الموقف الأول . . فقد بدأ بوصول الفريق دافيد اليعازر إلى مركز قيادة اللواء شمويل جونين قائد جبهة سيناء مساء ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، يرافقه الفريق إسحق رابين ليعتمد خطة الهجوم المضاد العام ، ويحدد المهام للواءات آدان وشارون وماندلر التي بدأوا في تنفيذها فجر يوم ٨ ، وقد شرح العقيد عساف ياجوري تفصيلات ذلك في جريدة معاريف يوم ٧ فبراير ١٩٧٥ قائلاً : « إن خيبة الأمل التي أصابت كل من عاش وسط أحداث ذلك اليوم الأسود ، لن تنمحي ذكراها من الأذهان . لقد حطم المصريون هجومنا المضاد ، وأصبح هذا اليوم هو يوم الدم والألم وخيبة الأمل عندما انقلبت الدنيا رأسًا على عقب بمجرد أن بدأنا الهجوم ، إذ كان المصريون في انتظارنا ، وما أن دخلت دباباتنا في مرمى أسلحتهم المضادة للدبابات حتى انطلق الجحيم الذي ذابت داخل أتونه دباباتنا ، وظهر جليًا أن المهمة التي أوكلت إلينا لم تكن تناسب الواقع الفعلي في الميدان » .

وأما اللواء أرييل شارون فيذهب إلى أبعد مما قاله عساف ياجوري ، إذ يقرر في الصفحة ٣٩٦ من كتابه عن الجولة الرابعة : « إن جنود مصر الذين واجهونا في ذلك اليوم كانوا أول مشاة في العصر الحديث ينجحون في صب النيران القاتلة التي أذابت هجوم مدرعاتنا وردّت القليل الذي نجا منها على أعقابه . لقد كان الثامن من أكتوبر كارثة حقيقية وكابوسًا لرجال الدبابات إذ لم يكتف المصريون بصد لواءاتنا المدرعة ، بل أصروا على نتف ريشها . والحقيقة أن محنة ٨ أكتوبر أغرقت القيادة العليا للجيش في حالة من الذهول ، حتى إنها لم تعد تدري ما ينبغي فعله » .

ويمضي شارون في القول . وفي ١٢ أكتوبر أوصى دافيد أليعازر بوقف النار بعد أن وصلت القوات الإسرائيلية المحاربة إلى حالة حرجة ، ولكن كيسنجر اعتبر أن وقف النار عندئذ سوف يضع إسرائيل والولايات المتحدة في موقف ضعف على طاولة المفاوضات . لذلك طالب كيسنجر السيدة مائير أن ترفض الحكومة الإسرائيلية طلب وقف النار ليتاح لجيش إسرائيل تحسين موقفه . وفي أثناء اجتماع مجلس الوزراء مساء ١٢ أكتوبر . . أعلن ديان أنه إذا كان الفريق أليعازر يوصي بوقف النيران فليس هناك سبب لتدخل كيسنجر في قرار الحكومة . وغرق مجلس الوزراء في بلبلة عميقة جعلته يقبل توصية أليعازر ، إلا أن المصريين رفضوا العرض وتلقت

فرقتاهما الرابعة والحادية والعشرين المدرعتان الأمر بتطوير الهجوم فتحول الموقف في المسرح لصالحنا » .

لقد دفعت المدرعات الإسرائيلية ثمنًا باهظًا ، نتيجة الغرور الذي أصابها بنصر صيف ١٩٦٧ ، وكان حجم هزيمة ٨ أكتوبر من الشدة بما جعل ديان يعترف إلى رئيسة الوزراء فيقول لها . . « جولدا . . لقد أخطأت في كل شيء ، ولم يبق أمام إسرائيل إلا الانسحاب إلى المضايق » .

والدارس لمعارك الجولات السابقة سوف يصادف موقفًا مشابهًا لهذا الموقف ، وإن حدث على امتداد خمسة أيام وليس يومًا واحدًا ، هي الأيام من الإثنين ٢٩ أكتوبر إلى الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٥٦ ، عندما فشل اللواءان ٧ ، ٣٧ المدرعان واللواءان ٤ و١٠ المشاة في اجتياح دفاعات أبو عجيلة من المواجهة أو الجنب أو المؤخرة ، حتى اضطر موشيه ديان رئيس الأركان العامة وقتها أن يعزل العقيد شمويل جودير قائد اللواء ١٠ المشاة ، ثم يقول في كتابه يوميات معركة سيناء : « لقد كانت أبو عجيلة المكان الذي حارب فيه المصريون على أفضل وجه ، بينما حارب الإسرائيليون على أسوأ صورة » .

والواقع إن فشل المدرعات الإسرائيلية في الموقفين كان لنفس السبب ، وإن اختلف مصير قادتها حيث أسر العقيد عساف ياجوري ظهر الثامن من أكتوبر ١٩٧٣ ، بينما عزل العقيد شمويل جودير عصر ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ .

وحقيقة الأمر أن الخطأ في الحالتين كان واحدًا ، وهو أسلوب استخدام الدبابة ، وليس عيبًا في الدبابة نفسها التي لا تقدر على اختراق الدفاعات المزودة بالأسلحة القوية المضادة للدبابات . . فتلك مهمة المشاة التي تقدر على تطهير الأوكار وتفتيش الأرض واحتلالها والتشبث بها وكلها مهام لا تصلح لها الدبابات ، وهو نفس ما حرصت عليه خطة الهجوم المصرية عصر السادس من أكتوبر في مرحلتها الأولى ، فأحرزت بفضلها ذلك النصر العظيم الذي قال عنه شيخ المؤرخين العسكريين الكولونيل الأمريكي تريفور دي بوي في كتابه الذي أسماه « النصر المراوغ » من الصفحة ٣٩٣ : « إن المهارة التي أبداها المخططون المصريون في العملية بدر ، لايستطيع أي جيش آخر في العالم أن يأتي بأفضل منها » .

إلا أن هذا النجاح العظيم سرعان ما تبدد صباح ١٤ أكتوبر ، عندما تبادل الخصوم الأدوار ، فنجحت إسرائيل في تحطيم الهجوم المصري الذي خرج عن حماية غابة الصواريخ

المضادة للطائرات لـتنقض عليه طائرات إسرائيل بـقذائفها التي لا تخطئ الهدف ، بـينما المدافع والقواذف الإسرائيلية المضادة للدبابات تحصد الـدبابات والمجنزرات المصرية ، وتجبر ما بقي منها سليمًا على سرعة العودة من حيث أتت .

لقد تحركت مفارز التطـوير المصرية الخمس نحو المضايق في الصباح ، لـتلقى نفس مصير المفارز الإسرائيلية الخمس التي تحركت صبـاح ٨ أكتوبر ، وعادت مساء كما عادت مساء بعد أن تكبدت خسائر جسـيمة وسالت دماء غزيرة . . . نفس الخطأ . . . ونفس النـتيجة التي اعترض عليها كـل من سعد الشاذلي وسعد مـأمون وعبد المنعم واصل بغـاية الشدة دون جدوى . وإذا كان أغلب فلاسفـة الحرب ينفرون من كلمتي « لو » و « ربما » إلا أنـه لا مفر من أن نقول إن الموقف السـياسي والعسكري المـصري كان في يوم ١٢ أكتـوبر يدعو إلى أن تقبـل مصر عرض وقف إطلاق النار ، ولو فعلت لتغيرت نتيجـة حرب رمضان المجيد ، وحققت للعرب مكاسب سياسية أفضل مما حقـقته بعد حصار الجيش الثالث ، وما أبدته إسرائـيل من عودة إلى الصلف والتعنت وانتزاع المكاسب بأكثر مما حققته على أرض الواقع من نجاحات .

تبقى كلمة عن ركائز القوة في المذهب العسـكري الإسرائيلي ، كما كشفت عنها الممارسات الميدانية على امتداد الجولات العربية الإسرائيلية الأربع :

فالقوات المسلحة الإسرائيلية تعتنق مبدأ العمل التعرضي والبدء بـالهجوم الذي حقـق لها انتصارات كثيرة في أغلب ما خاضته من جولات ، بفضل نجاحها في فرض المعركة من اختيارها مكانًا ووقـتًا وزمانًا وظرفًا ، مع توريط الـعدو في قتال تحت ظـروف غير مواتية لـه أو شديدة الخطر عليه ، مثلما واجهته مصر إبان العدوان الثلاثي عليها عام ١٩٥٦ .

والقوات المسلحة الإسرائيلية تعتنق مبدأ سرعة نقل المعركة إلى أرض العدو وقد طبقـته في كافة جولاتها مع العرب ، وجنت منه مكاسب ضخمة في كل مرة ، على نحو ما تحقق لها في النصف الثاني من حرب رمضان المجيد .

والقوات المسلحة الإسرائيلية تعتنق مبدأ انتزاع السيطرة الجوية على سمـاء المسرح ، وقد حققتـه في كافة جولاتهـا مع العرب فيما عـدا المرحلة الأولى من الجـولة الأولى عام ١٩٤٨ ، والمرحلة الأولى من الجولة الرابعة عام ١٩٧٣ .

والقوات المسلحة الإسرائيلية إذ تفرق في النظرة الاستراتيجية إلى جبهات الطوق العربي . . فإنها تـعتبر جبهة سيـناء أقواها ، وضفة الأردن أخطـرها ، وهضبة الجـولان أشـدها عـداء ،

فإنها كذلك تعتنق حيالها جميعاً مبدأ العمل من خطوط داخلية لتهزمها فرادى ، ثم تستقضي منها ثمن الهزيمة مجتمعين .

وإذا كانت قد احتاجت في ممارسة مبدأ العمل من خطوط داخلية إلى أن تلتمس الهدنات في الجولة الأولى ، حتى تنقل جهدها الرئيسي من جبهة لأخرى . . فإن ما وفرته لقواتها البرية من ميكنة عالية وتدريب راقٍ على الحرب الخاطفة من ذلك قد يسر لها أن تمارس هذا المبدأ في الجولات التالية ، دون الحاجة إلى التماس أو قبول الهدنات ، لتنقل تلك الجهود خلالها من جبهة إلى الأخرى .

وما من شك أن ما ساعدها على الاستمرار في ممارسة هذا المبدأ بنجاح ، وهو ما ظل عليه العمل العسكري العربي المشترك من جمود وشلل فيما عدا الساعات الأولى من حرب رمضان المجيد ، عندما شنت مصر وسوريا هجومهما المنسق في نفس اللحظة فواجهت إسرائيل لأول مرة بمبدأ العمل من خطوط خارجية بما أوقعها في حيرة شديدة وخطر داهم أطلق عليه الإسرائيليون اسم « الزلزال » .

وكانت أبرز ممارسات إسرائيل لمبدأ العمل من خطوط خارجية خلال الجولة الثالثة في صيف ١٩٦٧ ، عندما كانت الهجمات السريعة المتتالية لكل من جبهة مصر فجبهة الأردن فجبهة سوريا على التعاقب .

لقد ركزت الأركان العامة الإسرائيلية أغلب جهودها الهجومية في جولة صيف ١٩٦٧ ضد جبهة مصر فيما بين الساعة ٨٤٥ . يوم ٥ يونيو ، عندما بدأت الضربة الجوية الشاملة المفاجئة ، والساعة ١٩٠٠ يوم ٩ يونيو عندما توقفت النيران بوصول القوات البرية الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ، بعد أن أتمت احتلال كل سيناء فيما لم يتجاوز ٩٥ ساعة زمن فقط .

وفي الساعة ١١١٥ من نفس يوم ٥ يونيو . . بدأ الهجوم على الضفة الغربية بقوات المنطقة العسكرية الإسرائيلية الوسطى قيادة اللواء عوزي نركيس ، وبنصف قوات المنطقة الشمالية قيادة اللواء دافيد اليعازر ، وخلال ٥٠ ساعة كانت الضفة قد وقعت في يد اللوائين ، فتوقفت النيران بوصول قواتهما عند نهر الأردن في الساعة ١٤٠٠ يوم ٧ يونيو .

وبعد وقفة تعبوية لمدة ٣٩ر٥ ساعة ، استغلها اللواء اليعازر في نقل قواته التي هاجمت ضفة الأردن لتشارك في هجومه على الجولان . . بدأ اجتياح الهضبة في الساعة ١٩٠٠ يوم ٩ يونيو فأتم احتلالها في ٣١ ساعة زمن ، عندما توقفت النيران في الساعة ١٨٣٠ يوم

١٠ يونيو ١٩٦٧ ؛ بما يعني أن العملية الهجومية الإسرائيلية الخاطفة التي خططها الفريق إسحق رابين ، وأطلق عليها الاسم الرمزي « الملاءة الحمراء » لم تستغرق في دحر أربع جيوش عربية ، واحتلال ما يزيد عن ثلاثة أمثال مساحة إسرائيل من الأراضي العربية إلا ما هو أقل من ١٣٠ ساعة بقليل . (اللوحة رقم ١) .

وبفضل الترابط الوثيق بين المؤسسات السياسية والدبلوماسية وبين المؤسسات العسكرية والإعلامية . . جاء تحقيق التعاون بينها لحصول على الأهداف المنشودة من الحرب ، والمحافظة على أغلبها خلال المفاوضات التي تتلوها أقرب ما يكون إلى ما كانت تنشده إسرائيل في كل جولة ، فيما عدا الجولة الثانية في خريف ١٩٥٦ عندما أجبرت على التنازل عن أغلب المكاسب بعد افتضاح تواطؤها المعيب مع البريطانيين والفرنسيين ، ذلك التواطؤ الذي أثار عليها ضمير العالم أجمع ، ودفع الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى عقد جلساتها من أجل السلام لأول مرة حتى لا يؤثر على قراراتها حق الفيتو الفرنسي أو البريطاني ، ثم لتصدر قرارها لإسرائيل بالانسحاب الكامل من سيناء ، وللقوات الإنجلو فرنسية بالجلاء التام عن بور سعيد .

وفي الختام . . فإن سجل الصراع العربي الإسرائيلي جدير بما يحتويه من خبرات ودروس سياسية ودبلوماسية ، واقتصادية ، وإعلامية ، وعسكرية ، ومعنوية أن يكون مادة إجبارية من مواد التثقيف العام في كل مؤسسة من تلك المؤسسات سالفة الذكر ، وأن يكون موضع المحاضرات والدراسات وحلقات البحث والندوات العلمية على مدى الشهور والسنين ، لا سيما وأنه إذا كان الصراع العسكري قد احتجب اليوم . . فإن الصراعات الأخرى سوف تستمر ، بل قد تحتدم بما يجعل متابعة أحداثها ودراسة سجلاتها الماضية مهمة وطنية من الطراز الأول .

ولن يفيد العرب أن يعمدوا إلى التغافل عن حقيقة أن إسرائيل كانت الأكثر إنجازًا والأقدر على دفع الأمور ، بما يخدم مصالحها بالدرجة الأولى ، فكانت نتيجة لذلك الأكثر قطفًا للثمار . . ولن يجدي العرب أيضًا أن يفعلوا كمثل ما سبق للملكة فيكتوريا أن فعلته ، عندما تعرض أحد سفرائها للإهانة من وزير بدولة باراجواي . . فلما أمرت قائد أساطيلها بالتوجه إلى تلك الدولة لتأديبها ، أخبرها أنها لا تملك سواحل على البحر ، فما كان منها إلا أن طلبت مقصًا قطعت به شريحة باراجواي من الخريطة ، ثم واجهت مجلس البلاط وعلى وجهها ابتسامة عريضة من التشفي قائلة : « أيها السادة ، لقد أنهيت المشكلة ، ولم يعد هناك ما يدعى باراجواي » .

إن إسرائيل قد فرضتها الدول العظمى والكبرى في قلب الوطن العربي ، ثم ساندتها بكل عون حتى شبت عن الطرق ، ودخلت معترك الحياة بكل ثقلها في منطقة الشرق الأوسط وفي الخلية الدولية ، وليس أمام العرب إلا أن يضاعفوا جهودهم الفكرية والعلمية والثقافية والعملية ليحققوا المزيد من الالتزام بالأساليب الصحيحة في معالجة المشكلات ، ويلتزموا بالطرق المعتمدة لإنضاج القرارات وليس الأسلوب القبلي أو العشوائي المعتمد على الإلهام الفردي ، الذي كثيراً ما أودى بالمصلحة العربية ، وضيَّع الحقوق وكشف عن تخلف الفكر وضحالته .

إن القرار السياسي بدخول حرب ١٩٤٨ كان خطأ انفرد به شخص واحد في غفلة عن مؤسسات الدولة السياسية والعسكرية ، وكذلك قرار تصعيد الأمور في الجولة الثالثة ، ثم قرار التطوير في منتصف الجولة الرابعة ، الذي فتح الأبواب أمام الجحافل الإسرائيلية للعبور إلى الضفة الإفريقية ، وتنقلب الموازين السياسية والاستراتيجية رأساً على عقب .

وتتمثل قمة المأساة في تلك القرارات الفردية ، وعلى رأسها ذلك القرار الغريب، الذي لا يزال بعد أكثر من ربع قرن مجهول الأب ، وأعني به قرار الانسحاب العام من سيناء ظهر السادس من يونيو ١٩٦٧ الذي تسبب في هلاك جيش ، وضياع سيناء ، والإضرار بكرامة العرب ، ونقل الصراع مع إسرائيل من أرض معاركه الضيقة حول فلسطين ، إلى مسرحه الرحب باتساع الشرق الأوسط كله من العراق شرقًا لتونس غربًا ، ومن الجولان شمالاً إلى عنتيبي جنوبًا .

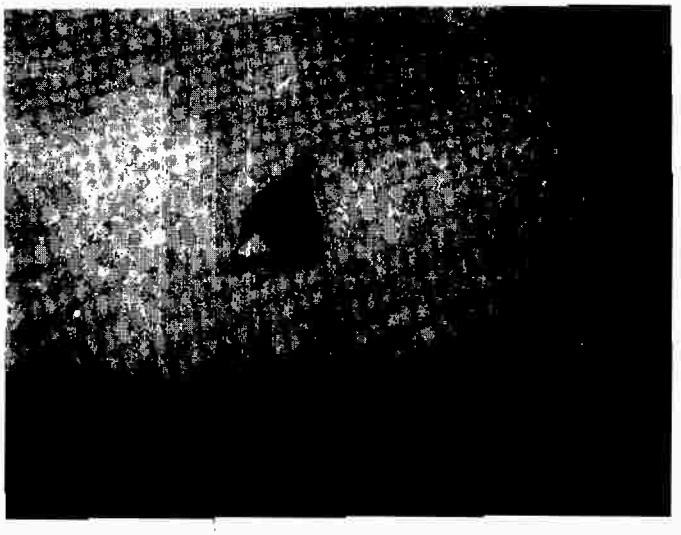

أول الأعلام المصرية التى رفعها الجنود فوق حصون بارليف عصر اكتوبر ١٩٧٣

وتمكن المهندسون العسكريون المصريون من إقامة الكبارى فوق قناة السويس
فى زمن وجيز

قائد الحصن المواجهة لبور توفيق يستسلم للضابط المصرى

طبق الإسرائيليون
أحدث التقانات الميدانية
فى حصون خط بارليف
ليوفروا الأمن الكامل
والراحة التامة لجنودهم

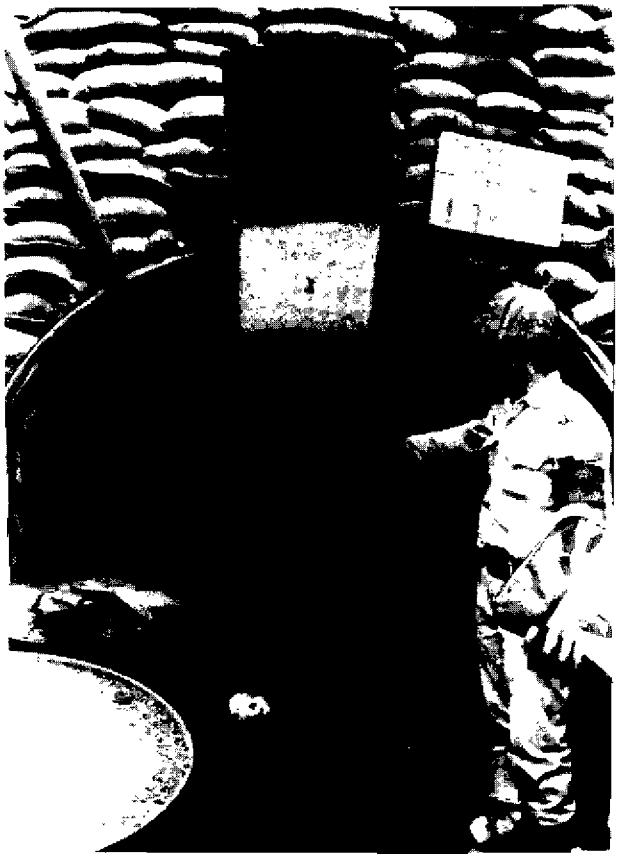

وزودوا كل حصن بالطعام
والمياه وأدوات الترفيه
التى تكفى الحرة عدة اسابيع
من الاكتفاء الذاتى الإدارى

مؤتمر ميدانى
بين الجنرال
موشية ديان
وقادة إسرائيل
على جبهة القناة

الجنرال مردخاى جور

الجنرال حاييم بارليف
الذى ظل يتباهى بخط الحصون الذى
حمل اسمه فلما اقتحمه جنود مصر
سارع إلى التنصل منه

الأسرى الإسرائيليون خارج حصونهم التى ظنوا أنها مانعتهم

الفصل الرابع

وتلك الأيام نداولها بين الناس

اختلفت نهاية كل جولة عربية مع إسرائيل عما سواها ، إذ هزمتهم في الأولى وفرضت قيام الدولة فوق أرض فلسطين بقوة السلاح ، بينما نجح العرب في الثانية أن يتخلصوا من فخ التواطؤ الثلاثي الذي اقتصر دور إسرائيل فيه على أن تستدرج جيش مصر إلى أعماق سيناء ليطبق عليه الغزو الإنجلو فرنسي من الخلف على امتداد قناة السويس ، فتعزله عن قواعده بالدلتا ، توطئة للقضاء المبرم عليه في رمال سيناء وهضابها .

وفي الجولة الثالثة وقع الجيش فريسة لقرار الانسحاب الأخرق ، الذي أودى بكثير من الشهداء ، وبنحو ٨٠ ٪ من الأسلحة والعتاد ، كما أتاح لجنود إسرائيل أن يصلوا إلى حافة القناة الشرقية فيما لا يتجاوز ٩٥ ساعة .

وكادت جيوش العرب وإسرائيل أن يتعادلا في حرب الاستنزاف ، التي دامت ألف يوم كانت ملحمة رفيعة المستوى بين العقول المدبرة والجيوش المنفذة ، ثم جولة رمضان المجيد التي نجح العرب فيها أن يفاجئوا إسرائيل التي لا تخفى عليها شاردة ولا واردة ، وأن يقهروا جيشها الذي زعم أنه لا يقهر .

ولا مجال للعجب في أن ينهزم جيش ما ، ولكن موضع العجب أن يسبب قائد الهزيمة لجيشه على نحو ما فعل فرعون موسى بجنوده فأسكنهم قاع البحر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ومن بعده قمبيز الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد ، عندما طمر كل جنوده في جوف رمال منخفض القطارة الناعمة ، أثناء هبوب ريح صرصر عاتية فلم يظهر لهم أثر إلى اليوم وقد كانوا يزيدون على العشرة آلاف . أما هكس باشا الذي أهلك التجريدة المصرية عطشًا في براري كردفان في نهاية القرن التاسع عشر ، والماريشال رودولفو جرازياني الذي أوقع كل جيشه في الأسر عند بيضاء فم جنوب بلدة بني غازي ببرقة في مطلع حقبة الأربعينات من القرن

العشرين فعلاً ، مثل ما فعله بعدهما المشير محمد عبد الحكيم عامر بجيش مصر ، في يوم قائظ من صيف عام ١٩٦٧ .

ورغم شدة وقع الهزيمة على أمة العرب . . فقد كانت دافعًا لهم إلى الرفض الذي تجلى في لاءات قمة الخرطوم الشهيرة . . ألا صلح ولا تفاوض ولا سلام مع إسرائيل حتى تزول آثار عدوانها .

وسرعان ما ترجمت تلك الآمال إلى أعمال ، فانكب كل مواطن عربي يبذل غاية الجهد للإعداد لجولة جديدة يستعيد بها العرب مكانتهم في عالم القرن العشرين .

ولم يمل صقور إسرائيل على امتداد السنين الست التي أعقبت جولة صيف ١٩٦٧ من التأكيد بأن مجرد تفكير العرب في خوض حرب جديدة يعتبر ضربًا من الخبل والحمق ، فمصادر المعلومات الإسرائيلية لا تخفى عليها خافية ، وقناة السويس تقف بين جنود مصر ورمال سيناء كمانع عريض وعميق ليس له نظير ، والحائط الشاهق الذي أقامته القيادة الجنوبية الإسرائيلية على حافة القناة الشرقية ، والذي يتجاوز عرضه العشرة أمتار ، ويعلو فوق صفحة القناة ضعف ذلك ، وطائرات الفانتوم والسكاي هوك التي تسيدت سماء المسرح ، والدبابات التي أتقنت الحرب الخاطفة ، والمساندة الغربية المضمونة ، والتي أعلنت مرارًا وتكرارًا أنها لن تسمح لسلاحها أن يهزم في المعركة ، تعتبر كلها محاذير ينبغي أن تدرك أخطارها أجهزة التخطيط العربية ، وهى ترسم شكل المعركة المقبلة ، إذا ما زين لها الحمق التورط فيها .

إلا أن هذا الحمق المزعوم تحول إلى عبقرية ، تجلت في خطة الهجوم عصر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم فيما حققته جيوش العرب من انتصارات ثمانية ، تعاقب الواحد منها تلو الآخر على امتداد الأيام الثمانية الأولى من الجولة الرابعة ، وقبل أن ينجح جيش إسرائيل بمعاونة البنتاجون والبيت الأبيض الأمريكي في انتزاع المبادأة مستغلاً قرارًا خاطئًا ، وقعت فيه القيادة السياسية العسكرية المصرية ، عندما أمرت بتطوير الهجوم نحو مضايق سيناء الغربية لتحقق الضغط الواقع وقتذاك على جيوش سوريا الشقيقة في الجولان - رغم أن الموقف كان قد استقر فيه بوصول قوات العراق والأردن - فأخرجت تلك المفارز الخمس سيئة الحظ إلى أرض القتل المنبسطة في الشرق ، لتنقض عليها طائرات إسرائيل ودباباتها ، وهى خارج مدى حماية الصواريخ المضادة للطائرات والمدافع المضادة للدبابات ، فيتيح لجيش إسرائيل ثمانية انتصارات فيما بقي من أيام تلك الجولة .

إن العالم لم يصدق نبأ أن العرب قد بدأوا القتال عصر ذلك اليوم المشهود من شهر رمضان المجيد ، بل ظل يتشكك فيما تدفق عليه من أخبار الانتصارات المذهلة - الهجوم العربي المفاجئ - اقتحام قناة السويس - اجتياح حصون بارليف - احتلال رأس جسر في الضفة الشرقية - تحطيم ضربات إسرائيل المدرعة - طرد طائراتها من سماء المعركة - تحقيق التعاون الوثيق بين جبهتي سوريا ومصر اللتين خاضتا المعركة في نفس اليوم واللحظة .

ويعزو الجنرال الهندي د . ك . باليت نجاح العرب في تحقيق المفاجأة في كتابه « العودة إلى سيناء » بقوله : « إن الجهد الخارق الذي بذله العرب في إخفاء نية ووقت وحجم واتجاه الهجوم حطم الفكرة التي كانت قد ترسخت في بعض الأذهان ، أنه لم يعد للمفاجأة مكان في مسارح الحرب الحديثة إزاء ما توفر في ترسانات العالم من عتاد فائق التقنية للاستطلاع والمخابرات ، علاوة على الأقمار الصناعية - جواسيس الفضاء - التي لا يخفى عليها شيء في أرض المعركة ، يزيد حجمه عن صندوق البريد » .

أما الجنرال الفرنسي أندريه بوفر . . فقد صرح بأن : « نجاح العرب في تحقيق المفاجأة في مستهل الجولة الرابعة يعتبر أمرًا مخالفًا للمنطق » .

وقد كان الأثر المباشر لذلك أن هرع هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي إلى البيت الأبيض ، فور سماع نبأ الهجوم المفاجئ حيث صرح لمعاونيه « بأن إسرائيل قد تلقت هزيمة استراتيجية ضخمة ، ولكن الولايات المتحدة لن تسمح لتلك الهزيمة أن تبلغ مداها » .

وكان الحال في إسرائيل أشد وأنكى حسبما دفع جولدامائير رئيسة الوزراء إلى أن تشكو بالدموع بأن الأيام الأولى للحرب كانت أتعس ما مر بها من أوقات . ثم أعقبها الجنرال موشيه ديان وزير دفاعها باعترافه لها « إن كل شيء قد ضاع » ، ثم محاولته الذهاب إلى محطة التلفاز ليطلع الشعب على الموقف العصيب .

أما نجاح الجنود المصريين في اقتحام القناة التي يبلغ عرضها ٢٠٠ مترًا ، وتسلق الحائط الشاهق الملاصق لضفتها الشرقية ، وشق ٨٠ ممرًا في بطنه ، الذي يبلغ سمكه ١٠ أمتار من الأتربة المتماسكة كالملاط ، وتدمير الضربات المدرعة التي أطلقتها القيادة الجنوبية الإسرائيلية لتلقي قضاها ، بينما صواريخ الدفاع الجوي المصرية تحطم خلال كل ذلك الوقت ما يجرؤ من طائرات إسرائيل على الاقتراب من مجال المعركة ؛ ليساعد القوات البرية الإسرائيلية في مأزقها

الذي أوقعها فيه غرور قادتها ، وشدة تهوينهم للعدو ، حتى وصل الحال إلى التأكيد « بأن جيوش العرب لن تقوم لها قائمة بعد هزيمة صيف ١٩٦٧ » .

لقد انتزعت تلك الجيوش صك البراءة من كل ما كاله لها الخصوم من دعايات مضللة وترهات وبهتان ، فلم يعد بعد النصر الذي حققته بين السادس والثالث عشر من أكتوبر مكان لترديد مثل تلك الأكاذيب ، بل تحول الأمر إلى الإشادة بها ، والعودة إلى التذكير بأمجادها التليدة .

وعندما جاءت لجنة من الكونجرس الأمريكي لدراسة مجريات الأمور بالمسرح ، طافت بدولة ثم اجتمعت في نهاية شهر نوفمبر ١٩٧٣ ، باللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني الميداني . وبعد عودتها قدمت تقريرها إلى الكونجرس الذي ذكرت فيه « إن إسرائيل شاهدت الحشد المصري الضخم ، ولكنها لم تفهم مغزاه بفضل إجراءات الخداع والإخفاء والاستتار التي اتصفت بالحذق » .

كما ذكرت اللجنة أن « قادة إسرائيل اعترفوا لها بكفاءة قوات الصاعقة والمظلات والقوات الخاصة ، التي أسقطتها القيادة المصرية للعمل خلف الخطوط . كما نوهت اللجنة بالمعدات والأسلحة الكثيرة التي غنمتها القوات المصرية ، والتي شاهدتها اللجنة في أماكن عرضها بالميادين العامة على شعب مصر ، كما قالت بأن رئيس الأركان الإسرائيلي اعترف لها بأنه : « لا يزال غير مصدق بأن العرب يقدرون على مثل ما فعلوه » .

ثم ختمت اللجنة تقريرها « بأن جيوش العرب أظهرت درجة عالية جداً من الروح المعنوية ، وهى تقتحم حصون خط بارليف » .

وفي نفس الشهر جاء وفد عسكري سوفيتي لزيارة جبهات القتال برئاسة أحد أبرز قادتهم - الجنرال لاشينكوف - وبعد أن تفقد أرض المعارك ودرس تفاصيلها رفع تقريره إلى الرئيس السادات ، حيث أشاد بمستوى الكفاءة القتالية العالية التي أبداها ضباط وجنود مصر في القتال ، وما امتازوا به من روح معنوية رفيعة ، مكنت الجميع من إنجاز مهامهم ، وإبداء البطولة الحقة في مواجهة المواقف العصيبة .

وفي مجال تقييم أعمال الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة المصرية . . نالت المدفعية تقريظًا خاصًا للدور العظيم الذي أدته هى وعناصر الدفاع الجوي ، التي طردت طائرات إسرائيل من سماء المعركة في الأيام الأولى من القتال ، فمهدت لباقي العناصر الأخرى طريق النصر .

أما شيخ المعلقين العسكريين العقيد الأمريكي تريفور دي بوي فقد أكد أمام الندوة الدولية لحرب أكتوبر التي عقدت بجامعة القاهرة عام ١٩٧٥ : « إن الإسرائيليين قد هزموا يوم ٦ أكتوبر ، وقبل أن ينقضي الليل كانوا قد فقدوا معظم المائة دبابة المرابطة كاحتياطي مباشر خلف حصون بارليف . وفي اليوم التالي عندما بدأت فرقتهم المدرعة العمل ضد القوات المصرية فقدت مائة دبابة أخرى » .

ثم هزم الإسرائيليون مرة ثالثة يوم ٨ أكتوبر الذي أطلقوا عليه « الاثنين الإسود » ، وفقدوا خلاله مائتين وخمسين دبابة . وحدثت كل تلك الهزائم لنجاح جهود القادة المصريين في بث الثقة في جنودهم وأسلحتهم المضادة للطائرات والمضادة للدبابات ، ثم ثباتهم في القتال كالأسود على نحو ما جاء في التقارير الإسرائيلية .

وفي المسرح البحري خاض الأسطول المصري الحرب بأسلوب استراتيجي ، بينما خاضها أسطول إسرائيل بأسلوب تكتيكي . أما جهاز المخابرات الإسرائيلي فقد أثبت فشله الذريع في حساب القدرات العربية الحقيقية ، مما أدى إلى اعتناق الأركان الإسرائيلية لمفاهيم زائفة حول النوايا والكفاءة القتالية العربية تقل عن حقيقتها بقدر هائل .

ثم ختم دي بوى تعليقه بأن أحد كبار قادة الولايات المتحدة كان قد صرح له بعد حرب أكتوبر « أنه لم يكن في وسع أية حواسب إلكترونية أو مباريات حربية ، أو نماذج للاشتباكات الميدانية ، أن تتنبأ بالنتائج التي انتهى إليها القتال في صالح العرب » .

وأدلى البريجادير جنرال كلينت هنت برأيه أمام نفس الندوة فقال : « لقد أجبر العرب العالم على أن يضع مشكلتهم في رأس قائمة اهتماماته ، كما أسقطوا النظريات الزائفة عن الحدود الآمنة ، والجيش الذي لا يقهر ، واستعادت مصر وضعها القيادي بين الدول العربية ، كل ذلك بفضل النجاح الباهر الذي حققته جيوش العرب في الأيام الثمانية الأولى من حرب أكتوبر التي خرجت منها جيوشهم سليمة لأول مرة ، وصار جيش مصر بعدها واحد من أقوى الأجهزة العسكرية في العالم ، كما سمحت نتائج الحرب لمصر أن تعيد فتح قناة السويس للملاحة ، واستعادة مواردها التي كانت قد فقدتها في نهاية جولة ١٩٦٧ .

ونتيجة للقتال المشرف الذي خاضته جيوش مصر وسوريا وخلافًا للهزائم السابقة . . استرد العرب كبرياءهم وثقتهم بأنفسهم ؛ مما أدى إلى دعم مركز العرب ونفوذهم في المجال

الدولي ، علاوة على ما أثبتوه من حنكة في إدارة حرب البترول كأداة اقتصادية في الصراع لدعم الهدف السياسي .

وليس ثمة شك من الوجهة الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية أن مصر قد كسبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، رغم أن نتيجة هذا الكسب الذي كان بمثابة الصدمة النفسية القاسية للشعب الإسرائيلي ، سيطرت عليه بعد توقف النيران في المسرح نفس الموازين الدولية التي تحكم العلاقات المحلية والإقليمية بين الدول ، وتفرض النظام الدولي العام على الجميع .

ثم ختم البريجادير جنرال كلينت هنت تلك الندوة الدولية بقوله : « لقد غيرت حرب أكتوبر ١٩٧٣ الخريطة السياسية للشرق الأوسط ، وحطمت حالة الركود التي كانت سائدة فيه ، ودعمت مركز الدول العربية ، وأسقطت مزاعم التفوق العسكري الإسرائيلي المطلق ، وكشفت عن تغيرات جذرية في مسرح الحرب ، والدور الحيوي الذي أداه المقاتلون العرب تحت قيادة تتحلى بالعزم والتصميم » .

لقد تحققت المفاجأة رغم وفرة المعلومات لدى إسرائيل التي كانت تشير إلى وقوع حرب وشيكة في مطلع شهر أكتوبر ، وأمكن اقتحام القناة - وهي عملية بالغة التعقيد - بكفاءة وأسلوب ضليع ، كما تمت العملية بسرعة وسهولة تستحق الإعجاب الحقيقي ، وقضت وسائل الدفاع الجوي المتمثلة في الصواريخ الموجهة والمدافع - وبكل تأكيد - على التفوق الجوي الإسرائيلي الأسطوري وأبعد طائراتها عن سماء المعركة ، فأتاح للقوات المصرية أن تحقق ما ظلت أبواق الدعاية الإسرائيلية تردد أنه المستحيل نفسه . ولا يبقى إلا أن يسعد الأبناء والأحفاد بذلك النصر العظيم ، الذي وعد به الله سبحانه وتعالى عباده المخلصين ، نصرهم في حرب رمضان المجيد .

وفيما يتعلق بالجانب السياسي . . فقد اختلفت حرب أكتوبر عما سبقها من جولات في أنها ورطت القوى العظمى في الصراع بشكل لم يسبق له مثيل ، طرح آثاره السياسية على الموقف السياسي الدولي والإقليمي بصورة جعلت مقولات فرض الأمر الواقع ودفع الطرف المهزوم إلى قبول شروط المنتصر دون تحفظ ، على نحو ما كانت تأمل إسرائيل من نصر يونيو ١٩٦٧ ، يظهر خطؤه بصورة لا تقبل الجدل .

وما من شك في أن تلك الحقيقة ، وليست صحوة الضمير في اللحظات الأخيرة من جانب صقور إسرائيل وكبيرهم مناحم بيجين ، هي التي أجلسته على المائدة بحديقة البيت الأبيض

ليضع توقيعه على اتفاقية السلام التي كانت تتضمن شرط الانسحاب الكامل من سيناء ، رغم أنه كان قد دأب على امتداد السنين الماضية على التأكيد بأن الانسحاب « نوع من الردة في العقيدة الصهيونية » .

ونظرًا للأهمية الفائقة لمنطقة الشرق الأوسط ، وما تحويه من مواد أولية وخامات طبيعية تعتمد عليها حضارة الغرب المعاصرة . . فقد كانت القوى الكبرى شديدة الاهتمام بالصراع العربي الإسرائيلي ، سريعة التدخل في مجرياته سعيًا وراء تحقيق مصالحها السياسية ، التي تهدف إلى فرض الهيمنة الغربية على دول المنطقة ، وتحقيق حلم القياصرة بالوصول إلى المياه الدافئة من الجانب الآخر .

ولهذا . . فقد كان أحد الدروس المهمة لحرب أكتوبر أنها أثبتت أن القوى العظمى لا تستطيع البقاء على الهامش بينما القتال يحتدم في المسرح ، وأنها مجبرة على التدخل فيه بنسبة طردية من تصاعد حدته وكثافة معاركه حتى لا تصل إلى احتمالات المواجهة المباشرة ضد بعضها البعض .

وبناء على ذلك فقد عمدت الولايات المتحدة بمجرد أن خمدت النيران في مسرح حرب أكتوبر إلى ضبط تورط القوى الكبرى في الصراع ، والمبادرة إلى طرح الحلول الوسط على الأطراف المتحاربة التي سرعان ما أثمرت ثمرتها بجلوس الخصوم إلى مائدة المفاوضات بكامب ديفيد لتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ، وهي المعاهدة التي أبعدت شبح الحرب عن المسرح لعشرات السنين ، بصفة أنهما الدولتان الوحيدتان اللتان تقدران على إثارة الحروب في المنطقة .

وكان الرئيس السادات يسعى إلى نفس الهدف منذ بداية عام ١٩٧٣ ، عندما راح يصرح المرة تلو المرة : « إنه إذا كان كل العالم قد غرق في غفلة الاسترخاء بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط ، فقد آن الوقت لإحداث صدمة توقظ الجميع من غفوتهم » .

ولقد كان السادس من أكتوبر مناسبًا تمامًا من وجهة النظر السياسية لإحداث تلك الصدمة التي جاءت في « شكل العملية الهجومية بدر » على جبهتي القناة والجولان لدفع إسرائيل إلى التعقل ، وحث الدول العظمى على الوساطة العادلة والجادة للوصول إلى حل مقبول ودائم للأزمة .

وهكذا . . خلقت الجولة الرابعة الظروف السياسية المواتية للتفاوض بصورة مشرفة لأطرافها لأول مرة في تاريخ هذا الصراع . وتكشف معالجة المحافل الدولية لنفس الأزمة بعد جولة ١٩٦٧ وجولة ١٩٧٣ عن الفارق الهائل في أسلوب وجدية وإيجابية السعي إلى تحقيق الحل السلمي ، إذ تحول مجلس الأمن والجمعية العمومية من حالة اللامبالاة والاقتناع عن اتخاذ القرارات القاطعة بعد جولة ١٩٦٧ ، مع كثير من التضليل الإعلامي ، إلى الدعايات الصهيونية في إقناع قطاعات كبيرة من الرأي العام بأن إسرائيل الصغيرة المسالمة (داوود) تلقى الظلم والعسف والعدوان من العرب المتطرفين (جالوت) ، فاقتنعت تلك القطاعات بعد جولة ١٩٧٣ بأن العكس هو الصحيح ، وأن العسف والتطرف والتعنت والعدوان وقف على إسرائيل .

تبقى كلمة عن أثر حرب أكتوبر على الاقتصاد العالمي الذي هدده العرب بحرب البترول في أزهى خططهم ، التي جعلت منه سلاحًا اقتصاديًا عظيم الأثر في محافل الغرب .

كما أن ارتفاع أسعار البترول أحدث تغييرات عميقة في البنيات الأساسية الاقتصادية بدول الأوبك بصفة خاصة ، وفي الدول المنتجة للبترول على وجه العموم .

وقد علق أحد علماء الاقتصاد على تلك الحقيقة بقوله : « لقد ظلت دول الغرب تزعم أنها تمتلك القوة الاقتصادية وحدها ، بفضل ما لديها من احتياطي من الذهب تتجاوز نسبته ٤٠ ٪ من الاحتياطي العالمي ، و ٣٠ ٪ من التجارة الخارجية ، ٢٠ ٪ من الإنتاج الصناعي ، و ١٠ ٪ من السكان ، حتى أيقظتهم العرب من تلك الغفوة بحرب البترول في أكتوبر ١٩٧٣ » .

وخلاصة القول أن انتصار العرب في الجولة الرابعة جاء بلسمًا لجراح ثلاث جولات ، سبقتها بالهزائم مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران ١٤٠]

صدق الله العظيم

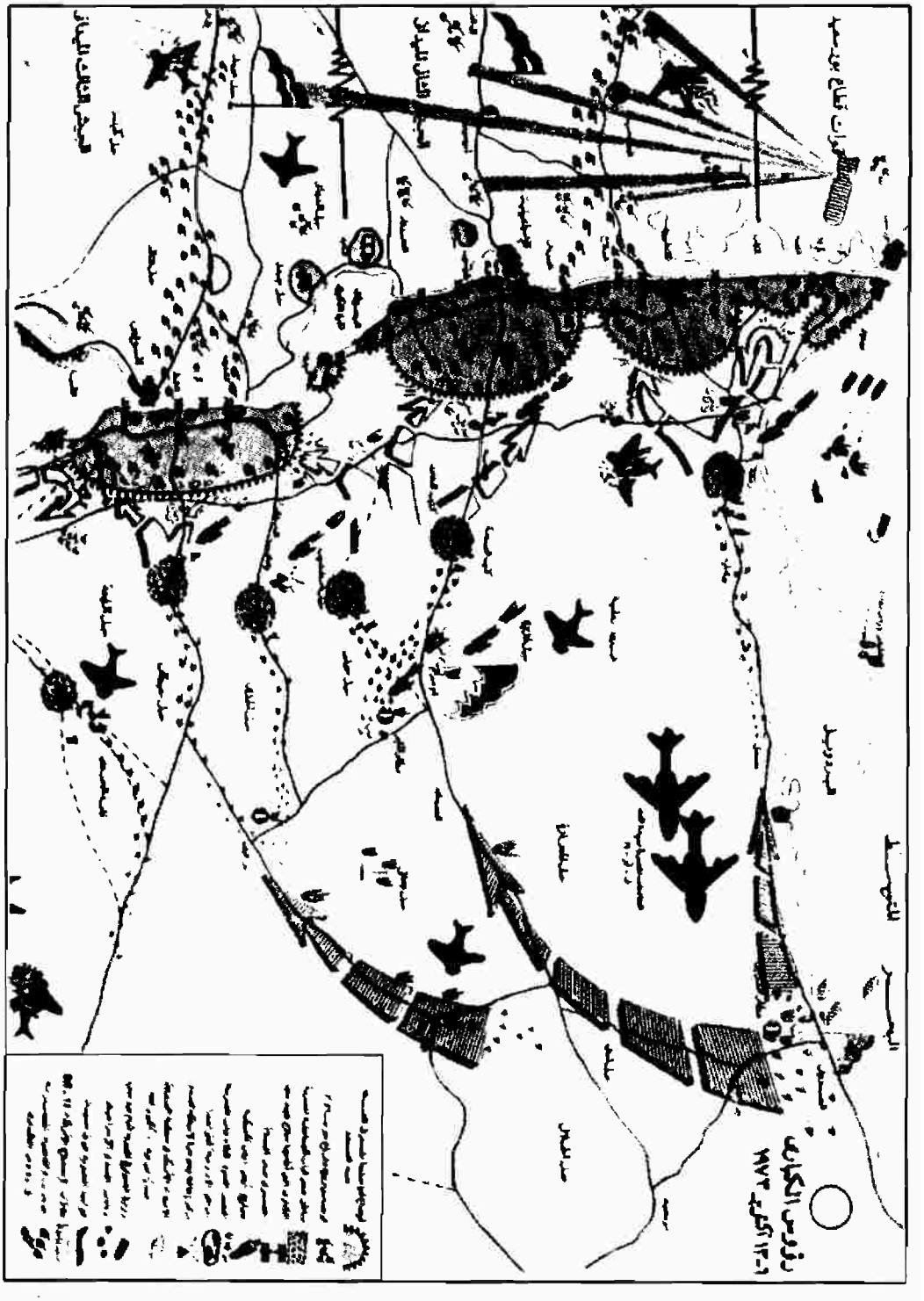

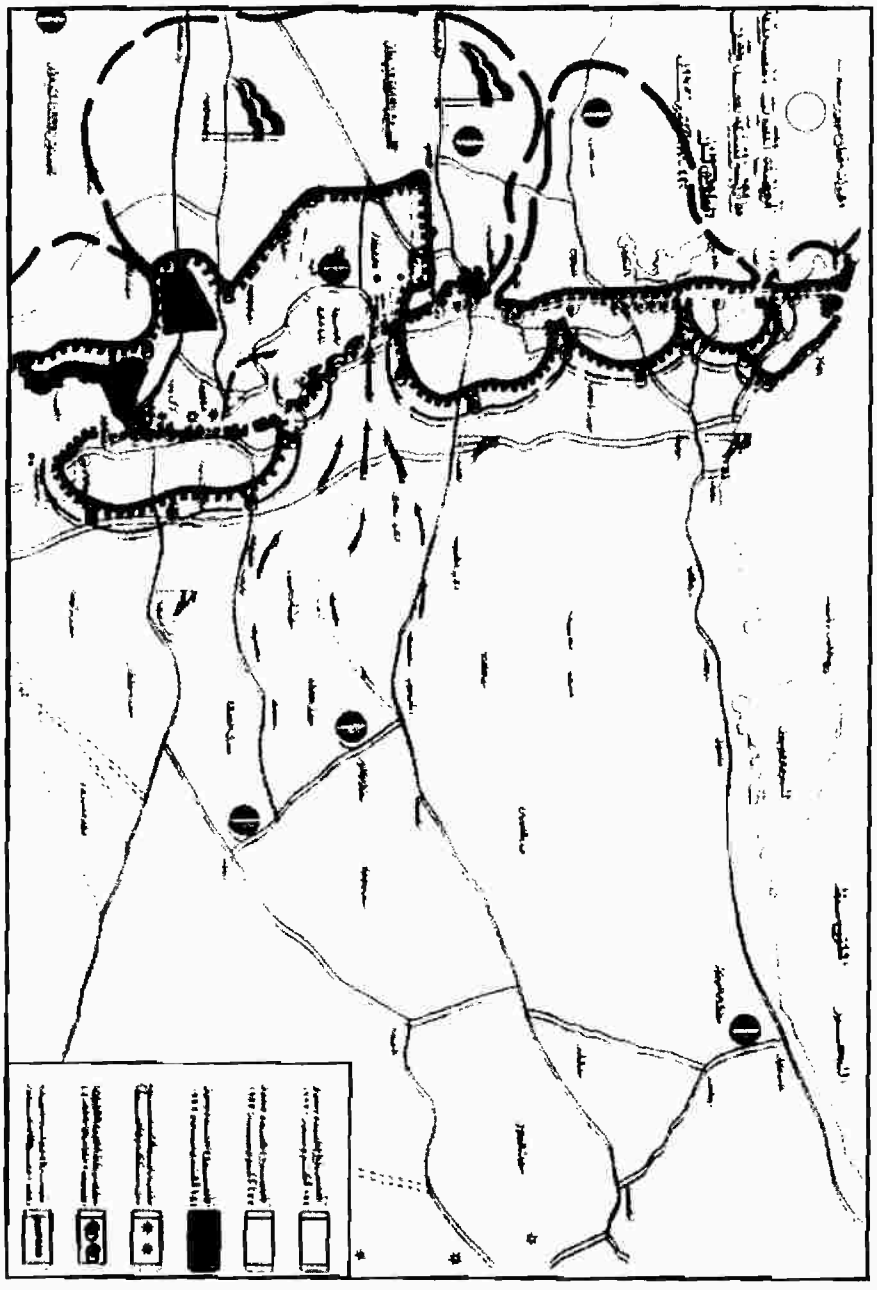

المؤلف بجوار الرئيس السادات خلال زيارته للجيش الثانى الميدانى

الرئيس السادات والفريق أول أحمد إسماعيل واللواء الركن الجريدلى فى زيارة الجيش الثانى الميدانى

الجنرال موشية ديان يتطلع إلى الضفة الغربية للقناة من الشاطىء الشرقى

الفصل الخامس

وقف إطلاق النيران من وجهة نظر القائد الأعلى

قال الرئيس السادات عن وقف إطلاق النيران في اكتوبر ١٩٧٣ الآتي :

« الساعة ١٢ مساء يوم ١٩ طلب مني المشير الـذهاب إلى القيادة ، وكنت قد أرسلت سعد الشاذلي يوم ١٨ لـلجيش وعاد يوم ١٩ ، وقال لابد مـن حل سياسي **وهو مرتعد انا احذر من التدخل في السياسة** واحمد إسماعـيل كان جندي وعسكري فـقط وهي ميزة ، **وقال الشاذلي** لابد من **سحب الشرق ولابد من حل سياسي** وسمعت كـلام الجمسى وكان مدير العـمليات وشفت الموقف وأعطيت تعليمات **بعدم انسحاب اي شيء من الشرق** ونتعامل نحن مع الغرب **واتخذت قرار وقف النيران** ، رغم أنه لم يطلب مني أحد هذا . . .

ملحوظة :

الحقيقة أن الفريق الشاذلي حضر لـلجيش يوم ١٨ وعاد يوم ٢٠ وليس يوم ١٩ وسجلات الجيش تؤكد ذلك .

وقد استكمل الرئيس السادات قصة إيقاف النيران قائلاً :

« يوم ١٩ كنا نحارب أمريكا لمدة عشرة أيام وأرسلنا ٣ ميراج لضرب مطار العريش وجدنا ٣ مظلات أمريكـية بها حيث الإمداد الأمريكـي يصل إليها ، ورغم هذا أعطـيت أوامر بضرب مطار الـعريش بالصواريـخ أرض أرض ، وكان السلاح روسي والـطاقم روسي ولكن مـوسكو رفضت الطلب !!!

ونفس الكـلام ده عملوه قبل كـده لما كنت عاور استـطلاع بواسطة الميـج ٢٥ ، وهذا كان سبب طرد الخبراء !!

وكان ممكـن ضرب مطار العـريش كان به طائـرات ضخمة وكـان ممكن إصابة الأمـريكان بضربة قوية ونكسة ، وكانوا سيعودوا إلى إسرائيل للتجهيز للخلف .

هذه علامة من علامات التاريخ رفض السوفييت ، رغم أن الصواريخ كانت موجهة أيضًا إلى بئر السبع وأسدود ثم تل أبيب .

وعن موقف الجبهة السورية علق الرئيس السادات قائلاً :

« توقفت الجبهة السورية في اليوم الرابع واحنا قاتلنا ١٠ أيام ، وكان اليهود يستخدموا **مافريك** قنبلة منه تساوي بطارية مضادة للطائرات مباشرة !!

وعن موقفنا دافع الرئيس السادات قائلاً :

« هل سنفتح سماء مصر للأمريكان والاتحاد السوفيتي منذ الساعة الثامنة مساء ٦ أكتوبر ، وهو يطالبني بإيقاف إطلاق النيران !!

والأسد قال للسفير السوفيتي يوم ٤ : « سنبدأ الحرب يوم ٦ أكتوبر وعليكم إيقاف القتال بعد ٤٨ ساعة على الأكثر » . أما أنا فقد قلت للسفير « أنا آسف بلغ حكومتك لن أوقف النيران حتى لو أوقفت سوريا النيران » .

وكنت قد اتفقت مع الأسد على إخطار الروس يوم ٤ أكتوبر بالحرب يوم ٦ أكتوبر وأنا يوم ٣ قلت للسفير السوفيتي سنبدأ الحرب فعلاً **وعملية محدودة** وأطلب الإجابة عن سؤال من القادة السوفييت الثلاثة : **ما هو موقف الاتحاد السوفييتي منا ؟**

رد يوم الخميس قال : « الحكومة السوفيتية تطلب نقل الرعايا السوفييت يوم ٥ من أي مطار » ولم يرد على سؤالي !! وقال تحت البحث !!

ويوم ٦ أكتوبر قال لي **اسأل الأسد شوف هوه عاوز إيقاف القتال امتى ؟**

وعن موقف السعودية قال السادات :

« طلب فيصل عند المشاركة في الحرب أن تكون المعركة طويلة ولا نوافق على إيقاف إطلاق النيران بسرعة ، حتى يمكن جمع كلمة العرب ، وطبعًا ده كان هدف أساسي أنا واثق منه » .

عودة إلى موقف سوريا من وقف إطلاق النيران :

قال السادات معلقا مرة أخرى على موقف الرئيس الأسد من وقف إطلاق النيران :

« أرسلت لحافظ الأسد برقية يوم ٦ بما قاله السفير السوفييتي ، ولعلمك قد أبلغت روسيا وأنت **أني لم أوافق على وقف إطلاق النيران** وأفدني عن موقفك . .

ولم يرد الأسد إلا يوم ٧ أكتوبر بعد الظهر **وقال الكلام ده ما حصلش !!**

ورغم هذا قال لي السفير السوفييتي يوم ٧ أكتوبر « اتصل بشريكك حيث طلب وقف القتال » واتضح بعد ذلك رسميًا أن **سوريا طلبت رسميا إيقاف القتال ٣ مرات** وبريجنيف أخطر إسماعيل فهمي بذلك !! (وزير الخارجية المصري في ذلك الوقت)

فقد كان تقدير روسيا أن المعركة فاشلة . .

وأفاد الرئيس السادات بموقف سوريا وروسيا قائلاً :

« لم تستطع سوريا أو روسيا الكلام بعد هذا ولن يستطيعوا . . كما أن كوسيجين وصل أثناء المعركة ، ورفضت إيقاف القتال » .

وعن موقف الفريق سعد الشاذلي أعاد ذكر موقفه مرة اخرى قائلاً :

« أرجو ألا يتكرر ما حدث يوم ١٩ (يقصد يوم ٢٠ بعد ما عاد الشاذلي إلى القاهرة قادمًا من الجبهة) في القيادة لازم تكون أعصابنا في ثلاجة اذكروا ما قلته لكم قبل المعركة . . » ثم قال : « منذ ذلك اليوم عينت الجمسى رئيسًا للأركان وعزلت الشاذلي جانبًا ، دون أن نعلن ذلك في هذا الموقف » .

وعن وقف النيران ، أعاد القول :

« كنت لا أريد قبول وقف النيران إلا بعد الوصول إلى المضايق ، ولكن الهزة كان لها اعتبار كبير . . الثغرة لا تهمني فقد أوقفنا الإسرائيليين على الخط ٢٢ وهو مقتل لها ، ورغم أن أمريكا ضدنا لمدة ١٢ يوم أوقفناهم على خط ٢٢ وكنت مستعد رغم هذا أكمل المعركة ، ولكن هزة القيادة لم تعجبني أحمد إسماعيل والجمسى ومحمد علي فهمي وحسني مبارك لم يهتزوا وكان رأيهم معي نثبت ونتعامل مع الغرب . .

ولم أقول لأحد في القيادة يوم ١٩ أني سأوقف القتال . . وفي فجر يوم ٢٠ قابلني حسني ومحمد علي فهمي في قصر الطاهرة ، وقالوا : لا تنزعج . . وليس الثغرة هي التي قالت لي أوقف القتال ، ولكن **الهزة في القيادة هي السبب الأول زائد أمريكا ودخولها المعركة بثقل في**

مواجهتنا فالثغرة من تخطيط الأمريكان ومساعدتهم ، وقرروا عملها يوم ١٤ يوم نقل الفرقة ٢١ إلى الشرق وقال لي كيسنجر هذا وايلي عازر اعترف بهذا . . والعتاد الأمريكي كان في الثغرة أيضًا فلا يمكن أن أحارب أمريكا

. . رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه . .

وروسيا للأسف لم توازن هذا معي وأنا عامل حسابي في المعركة على هذا ، ولكن لم يحدث . . وحقيقة أنها أرسلت لنا كوبري جوي ولكن لا يقارن بما عملت أمريكا . . لا طائرة ولا دبابة - أما إلى سوريا فقد أرسلوا أكثر من ١٢٠٠ دبابة وهي خسائرها في يوم ، وكذا أرسلوا ١٥٠ طائرة أرسلوها لهم في كوبري جوي . .

ويوم ١٢ أكتوبر طلبت روسيا مع أمريكا وضعنا في موقف حرج وقالت روسيا لأمريكا : « أن مصر قبلت إيقاف النيران وهذا كذب ، وأنا لم أنس أول هدنة عام ١٩٤٨ والملك عبد الله وكانت هي سر الهزيمة !! »

« أنا لا أثق في روسيا أو أمريكا أو إسرائيل في ذلك الموقف . . فقد ذهب بومدين (رئيس الجزائر) إلى روسيا ومعه ٢٠٠ مليون دولار لنا ولسوريا لشراء سلاح كزبون وهم تجار سلاح ولكنه عاد إلى الجزائر وصرح قائلاً « روسيا تريد حرب السادات ٢٤ قيراط أكثر من أمريكا »

وهكذا مسكت روسيا خنجر وراء ظهري لطعني ، حتى أرجع راكعًا إليهم لنجدتنا مثل عام ١٩٦٧ . . فروسيا تستطيع إرسال ٢٥ طائرة في شهر واحد ، ولكن أمريكا وانجلترا وفرنسا لا يمكنها لأن المصانع هناك لها طابع قطاع خاص (أرسلت روسيا إلى مصر ٢٥ طائرة في شهر يناير ١٩٧٥ !!) كانت روسيا تعتقد أنني سأفقد ٨٠ ٪ من سلاحي وأركع لهم ، وإلى اليوم ما زالت معركة الخبراء قائمة والعقدة قائمة لسه للآن . . »

ثم عن الخسائر واستعراضها ، قال الرئيس السادات يوم ٤ مارس ١٩٧٥ أمام القادة : « نحمد الله طلعنا بأكثر من ٨٠ ٪ من قواتنا سليم حقيقة فقدنا ١٢٠ طائرة واليوم والحمد لله تم استعواضها وفقدنا ٧٠٠ دبابة و ١٥ كتيبة دفاع جوي فقط وإن شاء الله سنتوازن تمامًا قبل الصيف - ومشكلتي في الغرب كانت الدبابات ولم أطلب سحب دبابات من الشرق وأول دبابة روسية حضرت بعد السويس للأسف .

تيتو أرسل لنا ١٤٠ دبابة بالذخيرة

١٠٠ دبابة من ليبيا

١٠٠ دبابة من أبو مدين من الجزائر

ولكن لواء واحد قبل إطلاق النيران كان يغير الموقف . . أقول هذه الحقيقة للتاريخ لمعرفة خلفيات المعركة .

إعداد القوى ورباط الخيل بعد وقف إطلاق النيران نوفمبر ٧٣

العدو الإسرائيلي :

تقدر قوة العدو الإسرائيلي بالآتي :

- ١٨ لواء منها ١٠ ألوية مدرعة .
- في الشرق ٣ لواءات مدرع ٢ لواء مشاه
- في الغرب ٣ لواءات مدرع ٣ لواءات مشاة
- في الاحتياط في العمق ٥ لواءات منها ٣ لواءات مدرع
- استعاد العدو كفاءة قواته الجوية إلى حوالي ١٠٠٠ طلعة
- يسيطر العدو على خليج السويس ، ويتحكم في طرق إمداد الجيش الثالث
- له أكثر من طريقة لإمداد قواته في الجيب الغربي بري بحري جوي

لا يستطيع العدو أن يبقي طويلاً في غرب القناة لو أمكن سد الثغرة وحصاره بها .

وإذا بدأنا الهجوم . . سيحاول العدو تصفية رأس كوبري الجيش الثالث ، أو قد يحاول هو أولاً ضرب رأس كوبري الجيش الثالث أو التحرك شمالاً للتأثير على الجيش الثاني تجاه الإسماعيلية .

قواتنا

قواتنا بصفة عامة متماسكة شرقًا وقوية

قوات النسق الثاني تعادل :٥ فرق ٨٦١ دبابة ٦١٨ مدفع ذاتي الحركة ، منها ٢١١ فهد في الجيش الثاني غربًا : ٤٢٨ دبابة ٣٩٣ مدفع ٣٢٣ مدفع مضاد للدبابات منها ١٤١ صواريخ

نسبة المشاة بالنسبة لقواتي والعدو ٣ : ١

المدرعات ١ر٢ : ١

المدفعية ٢ : ١

احتياطي قيادة عامة : فرقة ٦ مشاة ميكانيكية : منها ٢ لواء مشاة ميكانيكي غير مستكملين تمامًا .

لواء ٢٥ مدرع استبدل بدبابات روسية ت ٦٢ فى شهر ١٢/ ٧٣

القوات الجوية بذلت كل جهد ممكن نسبة الاستكمال مقاتلات ٦٦ ٪ طيارين ٨٢ ٪

مقاتلات قاذفة ٥٥٪ طيارين ٢ر٦٠٪

الدفاع الجوي متماسك ، أما في منطقة الجيش الثالث ضعيف

القوات البحرية كاملة عدا ٥ لنشات طوربيد صواريخي ، ولكنها قادرة على العمل تمامًا .

القوات المسلحة المصرية في موقف استراتيجي ، جيد للدفاع شرقًا أو غربًا ، وقادرة على تكبيد العدو خسائر ، وعلى الهجوم لتصفية رأس الكوبري ، ولكن القوات الجوية سيكون لها عامل حاسم في هذه المنطقة .

موقف الجيش الثالث شرقًا متماسك ، ويستطيع المقاومة .

أما موقف الجيش الثاني فرأس الشاطي قوي ومتماسك واللواء ١٥ مدرع في قطاع القنطرة شرق ، واللواء ٢٤ مدرع في قطاع رأس شاطئ فر ٢ وفر ١٦ كاحتياطي قائد الجيش الثاني شرقًا .

(١) الجزائر لها ٢ سرب ميج ١٧ ٢٣ طيارًا ٢٣ طيارة

سرب ميج ٢١ ١٥ طيارًا ١٢ طيارة

في الغرب في قطاع القنطرة غرب اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي يعاد تجميعه

وتم إعادة ك بب من ل ١٥ م لتعمل كاحتياطي في المنطقة .

في قطاع غرب الإسماعيلية . . يعاد تجميع وحدات الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية ، تحت قيادة الفرقة عدا اللواء ٢٤ مدرع (في الشرق)

ويمكن استخدام ل ٢٤ مدرع مع ل ١٥ مدرع شرقًا لقفل الثغرة شرقًا من قطاع رأس شاطئ الفرقة ١٦ والفرقة ٢١ مدرعة . وجاري إعادة تجميع دبابات فر ٢١ مدرعة ، واستعادة الأوضاع بمساعدة جميع المديرين .

الشهداء ٦٣٥٢

الجرحى ١٤٠٠٠ ، عاد ٦٠٠٠ للوحدات

مفقود ٦٠٠٠

تحليل الموقف :

بعد العمليات ووقف إطلاق النيران . . نستطيع أن نقول إننا حققنا أهدافنا الاستراتيجية ، ووضعنا إسرائيل في حدود النقاط الأربع ، التي لا يمكن أن تقبلها إسرائيل :

١- حرب طويلة ، فهي تحت التعبئة الكاملة ومتاعبهم واضحة .

٢- حرب استنزاف وخسائر ، وتحقق بحجم خسائر لم يقولوا حقيقته ١٠ آلاف قتيل وجريح .

٣- الحرب على جبهتين : سوريا ومصر ، هي دائمًا تتفاداه وحدث .

٤- العامل النفسي بإصابتنا بالشلل في ما قبل البدء في أي معركة ، وجدار الخوف الذي بنوه ، وأن عمقهم يمكن أن نطوله .

من هذا يتضح أن نظرية الأمن الإسرائيلي بنقل المعركة خارجها حتى لا تتكبد خسائر وقد تكبد العدو خسائر ولكنها رغم ما هي فيه الآن فقد خسرت كثيرًا رغم أنها حاربت بعيدًا !!

ولكن حدثت أخطاء تكتيكية في قواتنا وعملية الدفرزوار تعتبر تمثيلية أو تياتروا (هكذا سماها الرئيس السادات) ولكن يجب أن نتعلم **خفة الحركة** مع تحسين المواقع والتحرك . . وعمل خطط جديدة ، وخطط بديلة ، والاستفادة من أعمال المفارز المدرعة وقوات الصاعقة والكمائن .

لماذا وافق الرئيس السادات على إيقاف النيران ؟

- لا نعطي فرصة لإسرائيل باستخدام أسلحة جديدة حديثة أمريكية .

- بدأت روح ١٩٦٧ في بعض القادة .

- لم يكن لدي القائد العام احتياطي عام يعمل به وهذا خطير .

ورغم هذا - هكذا قال الرئيس السادات - « اعتقد أن مصر عملت عملية ممتازة ولكن قبول وقف إطلاق النيران يختلف عن عام ١٩٦٧ فقواتنا ١٠ فرق شرق ، ١٠ فرق غرب وإن شاء الله سنستعوض دبابات ويكفي أننا كسرنا حائط الخوف والجيش الذي لا يقهر وبهذه الروح العالية حققنا كثيراً ، ولكن يجب أن نكون يقظين ومتحركين آخذ أرض وأزنق العدو نغير السكون والجمود » .